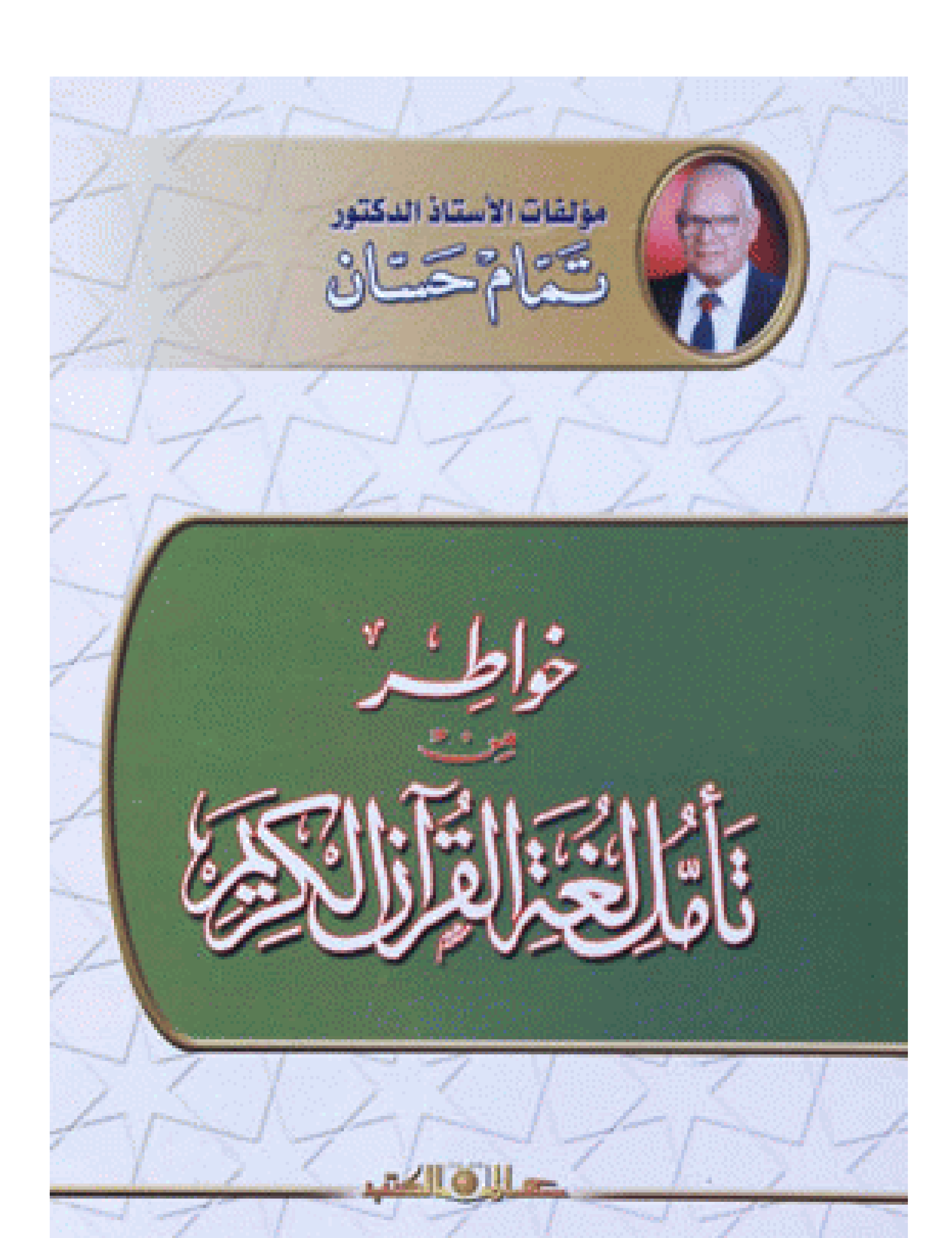

مؤلفات الأستاذ الدكتور
تمام حسان
خواطر
من
تأمل لغة القرآن الكريم
عالم الكتب

ورتلناه ترتيلا

الرَّتَل مجموعة من الأشياء من قبيل واحد كالخيل أو السيارات أو ما يشبه ذلك . وجمعه «أرتال» والأرتال يتبع بعضها بعضا فى الحركة بحيث يتميز كل منها عن صاحبه حين يلاحقه . وإنشاء الأرتال.. وتحريكها «ترتيل» لها بحيث ينفصل بعض الأرتال عن بعض أثناء الحركة كتوالى فصائل الجند فى مسار العرض العسكرى . ولقد اعترض المشركون على نزول القرآن مرتّلا (أى مفرقا فى الزمن) . وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» (الفرقان٣٢) . والمقصود بالترتيل هنا والله أعلم إنزال الوحى بكل مجموعة من الآيات المتعلقة بواقعة معينة بحسب زمن وقوعها ، وذلك لتقرير حكم الله في هذه الواقعة بعينها . من هنا تَفَرَّق إنزال الوحي أرتالا بتفرق الأحداث.

والمعروف أن في التشريع الإسلامي لبعض الأمور تدرجا ذا حكمة خاصة كالتدرج في تحريم الخمر ، ... وأن فيه آيات تنسخ أحكام آيات أخي كذلك كما حدث لآية الحساب عن حديث النفس في قوله تعالي : «وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ» (البقرة ٢٨٤) . فلو أن القرآن الكريم أنزل جملة واحدة لأثار في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام التردد والبلبة فَتَحَيَّر أمام الاختيار بين الأخذ بأمرين متعارضين اتضح من التفريق بينهما بالترتيل أيهما ناسخ للآخر ، ومن هنا جاءت عبارة : «كذلك لنثبت به فؤادك». ومن هنا رتَّل الله تعالي الوحي القرآني ترتيلا متواليا علي مدي ثلاث وعشرين سنة .

أما ترتيل التلاوة فالمقصود به شيء آخر وإن إتفق مع المعني الأول في قصد التوالي والتفريق ذلك أن ترتيل التلاوة يتعلق بالأصوات المتحركة من جهة وبين ظواهر المد والسكت والإدغام بغتة والوقف من ظواهر الفصل بين

أنساق المتحركات . فهذه الأصوات المتحركة ترد في التلاوة في صورة أرتال تفرق بين كل منها وصاحبه واحدة من هذه الظواهرالصامتة أو ما في حكم الصامتة . استمع إن شئت إلي المصحف المرتل بصوت أي واحد من القراء المجيدين وستدرك عندئذ معني قوله تعالي (في سورة المزمل٤) : «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً » . وهكذا يكون للترتيل معنيان متقاربان. وهذا المعني الأخير خاص بأحكام التلاوة .

محور القرب والبعد
في تضام عناصر النص القرآني

لا بد لكل نظام أن ينبني علي محاور PARAMETERS من العلاقات المترابطة إيجابا وسلبا يشتمل كل منها علي قطبين أو أكثر . ويصدق ذلك علي كافة أنواع الأنظمة ، ومنها نظم اللغة العربية . لقد عني النحاة العرب منذ بدء التفكير في قضايا النحو العربي بتناول هذه المحاور العلائقية ، وبكيفية ربطها بين عناصر الكلام ، فخرجوا من ذلك بالكشف عن أثر هذه المحاور في ضبط القواعد التي تصف اللغة وطرق استعمالها . دعنا نضرب من الأمثلة ما يوضح صدق ما نقول ، وذلك بأن ننظر أول الأمر في محور أقسام الكلم . فلهذا المحور أقطاب متعددة منها الاسم والفعل والحرف الخ. والعلاقة بين كل قطب منها وبين الآخر علاقة تقابل وسلب ، بمعني أن القطبين لايجتمعان في عنصر واحد في جملة بعينها . ولكن كل قطب منها في الاستعمال يتقاطع مع أقطاب المحاور الأخري . فإذا نظرنا إلي عناصر جملة مثل : «أكل الغلام التفاحة» وجدنا تقاطع المحاور علي النحو التالي :

اللفظ	القسم	الشخص	العدد	النوع	التعيين	التكر	الإعراب	التضام	العلامة	الوظيفة
أكل	فعل	للغائب	للمفرد	للمذكر	—	ظاهر	مبنى	مفتقر إلى فاعل	متقدم متعد	فعل ماض (حدث + مضى)
الغلام	اسم	غائب	مفرد	مذكر	معرف	ظاهر	مرفوع	عمدة	متأخر	فاعل
التفاحة	اسم	غائب	مفرد	مؤنث	معرف	ظاهر	منصوب	فضلة	تعدى إليه الفعل (غير محفوظ الرتبة)	مفعول به

وهكذا تعتمد وظيفة اللفظ المفرد في هذه الجملة بذاتها علي تقاطع أقطاب المحاور المذكورة من القسم إلي الشخص والعدد والنوع والتعيين والذكر والإعراب والتضام والعلاقة السياقية والرتبة ونحوها .

وهذا التقاطع بين أقطاب المحاور هو اللبنات التي تتحقق بها شروط الصياغة ، وبها يقوم صرح المعني ، ويؤمن بها اللبس . ومعني أن العناصر المتقاطعة أقطاب المحاور أن كل واحد منها يقابله قطب آخر أو أكثر في حدود المحور الذي ينتمي إليه . فالاسم مثلا يقابله الفعل والحرف ، والغائب يقابله المتكلم والحاضر ، والمفرد يقابله المثني والجمع ، والمذكر يقابله المؤنث، والمعرفة يقابله النكرة ، والظاهر يقابله المضمر والمستتر والمحذوف ألخ .

وفيما يلي عرض لجملة من محاور التعليق في اللغة العربية :

المحور	أقطابه			
أقسام الكلم	اسم	فعل	حرف	الخ
الشخص	متكلم	مخاطب	غائب	
العدد	مفرد	مثنى	جمع	
النوع	مذكر	مؤنث		
التعيين	معرفة	نكرة		
الحالة	إعراب	بناء		
الذكر	إظهار	إضمار	استتار	حذف
التضام	افتقار	اختصاص	استغناء	
الصيغة	مجردة	مزيدة	منقوصة	
الرتبة	محفوظة	حرة	تقديم	تأخير
الإعراب	رفع	نصب	جر	
القرينة	ظاهرة	مقدرة		
المأخذ	مشتق	جامد		
الصرف	منصرف	ممنوع		
الطرد	تصحيح	تكسير		
الموقع	عمدة	فضلة		
المسافة	قريب	بعيدة		

ويمكن للقطب أن يتفرع إلي أقطاب فرعية ، فالفعل مثلا له قطبان : الحذف والزمن . وللمؤنث قطبان : الحقيقي والمجازي . وللإعراب إما علامة أصلية أو فرعية . وهلم جرا .

ولقد حظي معظم المحاور السابق ذكرها بالكلام المسهب من النحاة ما عدا محور المسافة بقطبيه : القرب والبد . فهذا المحور لم يجد عناية به إلا في حدود ضيقة من نظرية النحو العربي ، كما يلي :

١ - اسم الإشارة قد يشير إلي قريب أو بعيد .

٢ - المنادي قد يكون قريبا أو بعيدا .

٣ - الضمير يعود إلي أقرب مذكور .

ويقف الأمر عند هذا الحد . ولكننا سنري فيما يلي أن تطبيق هذا المحور لا ينحصر في هذه الصياغات النحوية ، وإنما يمتد إلي غيرها من الأبواب النحوية التي يتخطاها إلي الأساليب والبلاغة علي نحو ما يتضح في الفقرات التالية :

من الواضح أن أية علاقة نحوية أو أسلوبية بين عنصرين من عناصر السياق إنما تكون أكثر وضوحا مع قرب أحدهما من الآخر منها عند بعده عنه . وليس ذلك مقصورا علي الثلاثة المجالات المذكورة منذ قليل ، وإنما يتخطاها إلي مجالات عديدة أخري كطرفي الإسناد وكالفعل وما يتعدي إليه وكالموصوف وصفته والمعطوف وكالشرط وجوابه والمسافة بين المتلازمين وكالجار والمجرور ومتعلقه وكطرفي الالتفات والتكرار ، وهلم جرا . فالقرب بين الطرفين في كل ذلك يعين علي وضوح المعني . ولكن أمن اللبس المترتب علي وجود قرينة يتضح بها المعني سواء كانت لفظية أو معنوية يسمح في الكثير من الأحوال بمطل أول الطرفين أو الفصل بينهما بعنصر أصلي أو زائد أو بجملة معترضة ، وبذلك يقع الترخص في قرب أحد العنصرين من الآخر مادام المعني واضحا واللبس مأمونا . دعنا نستشهد بالآيات القرآنية الكريمة علي صدق هذه الدعوي مع البدء بالمسافة بين الضمير ومرجعه :

بين الضمير ومرجعه :

١ – عند غياب القرينة علي المعني المراد ينبغي للضمير أن يعود إلي أقرب مذكور ، ولا سيما إذا كان في ذلك ما يرجح أحد احتمالات المعني المتعددة. يشهد علي ذلك قوله تعالي : «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ » (النساء ٨١) إذ إن في الفعل «تقول» ضميرامستترا تقديره «هي» يعود علي الطائفة ؛ أي أن الطائفة المذكورة قالت : «طاعة» وبيتت معصية. وليس الأمر كما قال القرطبي رحمه الله : «بدلوا قول النبي صلي الله عليه وسلم فيما عهده إليهم وأمرهم به » لأن الآية لم تشتمل علي قول قاله النبي عليه الصلاة والصلام وإنما اشتملت علي قولهم هم : «طاعة» ولو كان الأمر علي غرار ما ذكره القرطبي وغيره لكان الضمير راجعا إلي من تدل عليه الكاف في «من عندك» لأنه أقرب المرجعين ، أي إلي النبي صلي الله عليه وسلم. ولكن الإشارة في الآية لم تجر إلي ما قاله هو وإنما جرت إلي إعلانهم نية الطاعة وهم معه وإلي أنهم يبيتون غيرها بعد انصرافهم . من هنا يكون عود الضمير إلي الطائفة أوضح وأولي ويعضده قرب المسافة بين الضمير ومرجعه .

٢ – ومن العود إلي أقرب مذكور أيضا ما نجده في قوله تعالي : «فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» (البقرة ٢٣٠) ذكر الفعل «طلقها» في الآية مرتين وهو يشتمل في كلتا الحالتين علي ضمير مستتر دال علي الفاعل . وهذا الضمير يعود في الحالة الأولي إلي الزوج الأول الذي استوفي الطلقات الثلاث والمرجع هنا متصيد من سياق الكلام . أما في الحالة الثانية فضمير الفاعل يعود إلي أقرب مذكور وهو المقصود بقوله : «زوجا غيره» . فإذا طلقها هذا الزوج الثاني فللأول أن يراجعها ولا جناح عليه في ذلك . وهكذا يعود الضمير إلي أقرب مذكور .

٣ – أما إذا وجدت قرينة علي المعني وأمن اللبس فإن الضمير يمكن

أن يعود إلي أبعد مذكور. ففي قوله تعالي : « لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ» (يوسف٧-٨) يعود الضمير وهو واو الفاعل في «قالوا» إلي أبعد الجماعتين السابقتين منه وهم الإخوة ، لا إلي أقربهما وهم السائلون . ويعضد ذلك سبب تركيبي وقرينة عقلية . إما السبب التركيبي فلو أن مقول القول (وهو كل ما جاء بعد لفظ «قالوا» من الاقتباس السابق) جاء بعد الإخوة مباشرة (وهم أقرب مذكور إلي مقول القول) لكان الضمير عائدا إلي أقرب مذكور ، ولبعدت المسافة بين كان واسمها إلي درجة تذهب بوضوح المعني من جهة وبحسن السبك من جهة أخري . ومن ثم وقع اسم كان وهو «آيات للسائلين» في مكانه من الآية فاصلا بين الضمير في «قالوا» وبين مرجعه وهو الإخوة . أما القرينة العقلية التي تدل علي أن الضمير للإخوة فهي تتمثل في أمرين أحدهما أن السائلين كانوا يخاطبون النبي عليه الصلاة والسلام ، أي أنهم كانوا معاصرين له ، ومن ثم لايفهم من الكلام أنهم إخوة يوسف وأبناء يعقوب . والثاني أن الإخوة أضيفوا إلي ضمير يوسف في لفظ «إخوته» كما أضيف الأب إلي ضميرهم في «أبينا» ، فاجتماع الإضافتين قرينة تدل علي أن الإخوة هم مرجع الضمير في «قالوا» .

٤ - ومن ذلك ما نجده في قوله تعالي : «وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» (البقرة ٦٧) إذ يستمر بنو إسرائيل في مناكفة موسي بتوجيه الأسئلة إليه حول البقرة المطلوب ذبحها حتي نهاية الآية رقم ٧١ . عندئذ يأتي قوله تعالي : «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا» (البقرة ٧٢ - ٧٣) . فالضمير في «بعضها» يعود من الآية ٧٣ إلي البقرة التي ذكرت في الآية ٦٧، ولاشك في أن المسافة بين الضمير في «بعضها» ومرجعه من البعد بحيث يتطلب إرجاع الضمير قدرا من التذكر ، وبخاصة أن القتيل كان «نفسا» بلفظ مفرد مؤنث يتفق في هذين المحورين مع الضمير في «بعضها» . غير أن الفعل «اضربوه» أضفي علي

النفس المقتولة من التذكير ما يحول بينها وبين أن تكون مرجعا للضمير في «بعضها» وبذا يعود إلي البقرة ويكون المعني : فقلنا اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة وهو ذيلها . وهكذا يعود الضمير عند وجود القرينة إلي أبعد مذكور .

٥ - قال تعالي «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا» (الكهف ٣٢ - ٣٤) . لو أعدنا الضمير في «له» إلى أقرب مذكور لعاد الضمير إلي «نهر» ، ولكن جملة «فقال لصاحبه» في موقعها من الكلام ربطت بين الضمير في «له» والضمير في «صاحبه» فجعلتهما لمرجع واحد ، وبذا حالت دون عود الضمير إلي النهر .

٦ - قال جل شأنه : «أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» (البقرة ٢٦٦) . وهنا أيضا لو أعدنا الضمير في «أصابها» إلي أقرب مذكور لعاد إلي الذرية الضعفاء . ولكن الذرية قد تكون من الضعف بحيث لايكون فقدها كارثة تستحق الألم والندم ، ولقد كان الجاهليون يئدون بناتهم لكونهم ذرية ضعيفة تمثل عبئا عند الغارة ولا تمثل نصيرا عند الغزو . أما الجنة فقد فصلت الآية مزاياها حتي جعلتها أمرا يستحق أشد الحرص عليه والاعتزاز بملكيته . فلو أصابها الإعصار لكانت إصابتها كارثة لايود إنسان عاقل أنه رزيء بها ، ولاسيما إذا كانت له ذرية ضعفاء لا يسعون لطلب الرزق ، وإنما تمثل الجنة مصدر رزق لهم . وهكذا يعود الضمير إلي أبعد مذكور ، لأن المعني يقتضي ذلك . والمعروف أن جملة الاستفهام الإنكاري إذا اشتملت علي حرف نفي قدر معناها علي الإثبات نحو «أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ

عَلَيْكُمْ» (المؤمنون ١٠٥) أي : لقد كانت آياتي تتلي عليكم . أما إذا لم تشتمل علي حرف نفي فإن معناها يقدر منفيا . فتقدير الآية (٢٦٦) من البقرة وقد سبقت هو : لايود أحدكم أن تكون له جنة .

ومعني المناقشة التي سبقت أن الاعتبارات الأسلوبية تحول دون ارتباط عود الضمير بقاعدة نحوية معينة ، أي أن قول النحاة إن الضمير يعود إلي أقرب مذكور لاينبغي أن يقبل علي إطلاقه ، إذ قد يتطلب الأسلوب والمعني عوده إلي أبعد مذكور كما رأينا .

المسافة بين طرفي الإسناد :

إذا تقارب طرفا الإسناد كان ذلك هو الأصل فيهما ، ولكن توافر قرائن المعني يبرر البعد بينهما كثيراً ، سواء كان هذا البعد ضئيلا كالفصل بينهما بالمفردات أو ملحوظاً كتوسط الجملة المعترضة بينهما . وفيما يلي عدد من الشواهد علي بعد المسافة بين طرفي الإسناد .

١ – قال تعالي : «فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ» (المائدة ١٠٧) . فهنا وصف المبتدأ «آخران» بجملة باعدت بينه وبين الخبر وسوغت الابتداء به وهو نكرة ، ثم جاء الخبر معرفة . تقدير الآية : فآخران قائمان مقامهما هما الأوليان بذلك . ولما كان الابتداء بالنكرة هنا له ما يسوغه وهو الوصف أصبح ارتباط الخبر بالمبتدأ أمرا أقرب للفهم علي رغم ورود الخبر «الأوليان» بعد الفعل «استحق» في موضوع يقع فيه الفاعل غالبا .

٢ – قال تعالي : «اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ» (آل عمران ٢ – ٤) . المبتدأ لفظ الجلالة والخبر «نزل عليك الكتاب بالحق» . وقد فصل بينهما بجملة معترضة «لا إله إلا هو» وصفتين هما «الحي القيوم». فلا يحق لقائل هنا أن يقول إن الخبر هو جملة «لا إله إلا هو» ولا إن الخبر هو «الحي القيوم» ليجعل ما يلي علي سبيل الاستئناف .

أن النظرة المتأنية إلي النص تبين أن مناط القول هو أن الله سبحانه يمن علي رسوله صلي الله عليه وسلم بإنه نزل عليه الكتاب بالحق ؛ والقرينة الدالة علي ذلك قوله تعالي بعد ذلك « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ » (آل عمران ٤) . وقد سبقت الإشارة إلي أن وجود القرينة الدالة علي المعني ييسر اتخاذ القرار في شأن المؤشرات الأسلوبية ومنها البعد ما بين طرفي العلاقة .

٣ - قال جل شأنه : « تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ» (السجدة ٢) . المبتدأ لفظ «تنزيل الكتاب» والخبر «من رب العالمين» وما بينهما جملة معترضة . ولو ارتضينا أن الخبر «لا ريب فيه» لكان المعني نفيا لكونه سبحانه قد ارتاب في التنزيل ، والتقدير أن تنزيل القرآن لم يصادف ارتيابا من الله سبحانه وتعالي . والمعروف أن نفي الدعوي يفهم منه سبق ادعاء وقوعها بمفهوم المخالفة.

٤ - قال تعالي : «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ » (السجدة ٤) . المبتدأ لفظ الجلالة وقد وصف بالموصول وصلته وما عطف علي صلته قبل أن يأتي الخبر ، وهو «مالكم من دونه من ولي ولاشفيع » . فإن قال قائل إن الخبر هو الاسم الموصول «الذي» وأن جملة «مالكم من دونه .... الخ» جاءت علي سبيل الاستئناف فالجواب أن الإخبار يكون بواسطة المجهول وبالمجهول لا بالمعلوم . وواضح أن المخاطبين كانوا يعرفون أن الله هو خالق السموات والأرض «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» (الزمر ٣٨) ولكنهم كانوا يتخذون الأصنام أولياء وشفعاء «وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ» (يونس ١٨) وإذا كان الأمر كذلك فالخبر هو «مالكم من دونه من ولي ولا شفيع».

٥ - قال تعالي : «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا» (الأنعام ١٥٨) . الأصل في الفاعل أن يتصل بالفعل وفي المفعول أن ينفصل عن الفعل ، بمعني أن الرتبة هي

(فعل+ فاعل + مفعول) . ومن هنا يصبح فصل الفاعل عن فعله أدعي للإنتباه من فصل المفعول عن هذا الفعل ، علي الرغم من أن بين الفعل المتعدي والمفعول به علاقة تسمي «التعدية» . فإذا نظرنا إلي موضع الفاعل «إيمانها» من فعله ومن المفعول به في هذه الآية الكريمة وجدناه مغايرا للرتبة الأصلية التي ذكرت منذ قليل . فإذا تصورنا تقديمه بحيث يسبق المفعول به بحكم الأصل واجهنا عود الضمير إلي متأخر لفظا ورتبة ، وإذا تصورنا تأخيره إلي آخر الكلام بحيث يلي ما وصف به المفعول من عبارة «لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» لوجدنا ضعف العلاقة بين «إيمانها» وبين فعله «ينفع» مما يؤدي إلي سوء السبك .

٦ - قال تعالي : «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» (البقرة ١٢١) ، المبتدأ هو الموصول «الذين» ، وجملة «يتلونه الخ» حال والإشارة «أولئك» لربط الخبر بالمبتدأ المشار إليه بها ، والخبر جملة «يؤمنون به» . ولايجوز أن نجعل الإشارة مبتدأ علي نية الاستئناف لأن في ذلك إقرارا بأن اليهود كانوا يتلون التوراة حق تلاوتها مع أهم بدلوها وحرفوا نصها وحملوها فلم يحسنوا حملها . أما علي المعني المقترح فإن الذين يتلون الكتاب حق تلاوته طائفة منهم دون جميعهم . وهكذا كانت القرينة عونا علي استحسان البعد بين المبتدأ والخبر .

٧ - قال تعالي : «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ» (البقرة ١٨٠) . جاء البعد بين الفعل «كتب» ونائب فاعله «الوصية» بمقدار جملتين شرطيتين يفهم جوابهما من الجملة الأصلية «كتب عليكم» . والذي سهل وقوع الجملتين الشرطيتين في موقعهما من الآية أنهما تمثلان قيدين علي وجوب الوصية . والمعروف أن القيد في النص جزء لا يتجزأ من النص . ولذا خف أثر البعد بين نائب الفاعل وفعله .

نسخ جملة الخبر:

١ - قال تعالي : «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ

الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (البقرة ١٦٤) . الأصل في رتبة اسم إن أن يليها مباشرة وألا يفصل الخبر بينه وبينها إلا أن يكون ظرفا أو جارا ومجرورا . والذي في هذه الآية هو الفصل بين إن وإسمها بالخبر المكون من جار ومجرور . ومناط الكلام هنا هو التنبيه إلي بعد المسافة بين إن وإسمها في هذه الآية . فما الذي برر هذا البعد من الناحية النحوية ، وما القرينة التي دلت علي المعني دون التأثر بهدا البعد؟ أما المبرر فيتمثل في أن ما عطف علي الخبر فهو من الخبر وما عطف علي الفاعل فهو فاعل أو علي المفعول فهو المفعول ، وهلم جرا . وبذا تكون الحصيلة في تركيب الآية هي تقدم الخبر علي الاسم مهما تعددت المعطوفات . ولاشك في أن تقدم الخبر مؤشر أسلوبي معتاد يحمل من المعني ما لايحمله وقوعه في رتبة التأخر . هذا هو المبرر . أما القرينة فهي إلي جانب الحركة الإعرابية للاسم المتأخر وهي الكسرة نيابة عن الفتحة أن اللام المزحلقة من شأنها أن تتصل باسم إن عند تقدم الخبرة . وبذا يتضح المعني ويحسن السبك علي رغم بعد المسافة .

٢ – قال تعالي : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة ٦٢) . طالت المسافة بين إن وخبرها لتعدد العطف علي اسم إن ، وهو أمر لا تأثير له في وضوح المعني كما سبقت الإشارة . ثم جاء خبر إن في صورة جملة شرطية توالت فيها المعطوفات علي فعل الشرط، فلم يكن لذلك أثر علي وضوح المعني ؛ لأن ما عطف علي الشيء فله حكمه ومعناه النحوي . ثم يأتي جواب الشرط آخر الأمر مقترنا بالفاء لأنه جملة اسمية ويظل المعني واضحا لكثرة القرائن .

٣ – قال تعالي : «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ» التوبة ٩١) . تقدم خبر ليس الجار والمجرور وعطف عليه معطوفان آخران ثانيهما موصول وصلته ، ثم جاء اسمها نكرة مؤخرا ليقيد النفي بالنصح لله ورسوله . وهكذا كانت مسافة البعد بين ركني الجملة بمقدار ما عطف علي الخبر المقدم ، وقد سبق القول إن ما عطف علي الخبر فهو من الخبر . وبذلك لايتأثر المعني ولا حسن السبك بطول المسافة بين ركني الإسناد .

التعدية :

١ - قال تعالي : «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ» (البقرة ١٠٥) . قلنا إن الأصل في رتبة الفاعل أن يتصل بالفعل ، وإن الأصل في رتبة المفعول به أ ينفصل عن الفعل . وبذا جاءت رتبة مكونات الجملة التي بين أيدينا في سياق الآية علي أصل الصياغة . ولكن الفاعل جاء ممطولا بصلة فيها وصف له وفيها معطوف علي هذه الصلة وقد باعد ذلك بينه وبين المفعول الذي جاء علي صورة المصدر المؤول من أن والفعل . لكن الفعل متعد يتطلب مفعولا لو حذف ما دل عليه دليل . ومن ثم يتوقع القاريء العثور علي هذا المفعول بعد إنقضاء الفاعل ، وهذا التوقع بذاته يعد قرينة معنوية علي هذا المعني . وهكذا يؤمن اللبس ويحسن السبك .

٢ - قال تعالي : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (البقرة ١٦٨) . جاءت الآية علي أصل الرتبة (فعل + فاعل + مفعول) ، ولكن الفاعل جاء ممطولا بواسطة حرف الجر الذي دخل علي الموصول وصلته «مما في الأرض» ومع أن المطل من شأنه أن يباعد بين المتلازمين نجد الجار والمجرور هنا عن تتمة ما تعلقا به ، ومن ثم كان المطل هنا موضع استحسان .

٣ - قال سبحانه : « لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ

ذَوِي الْقُربَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ » (البقرة ١٧٧) . المعروف بالنسبة للفعل «أعطي» وما في معناه أن المفعول الأول هو الآخذ والمفعول الثاني هو المأخوذ ، بقطع النظر عن اعتبارات الرتبة في الجملة الحاضرة . والآخذون في هذه الآية هم ذوو القربي ، والمأخوذ المال . ففصل السياق بين الفعل ومفعوله الأول بالمفعول الثاني بتقديمه مع ما عطف عليه من جار ومجرور متعلق بالفعل «آتي» علي المفعول الأول . ذلك أن الرتبة التي جاءت في هذه الآية لو عكست بحسب الأصل لطال الفاعل بما عطف عليه وجاء المفعول الثاني كلمة مفردة علي النحو التالي : (وآتي ذوي القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب المال علي حبه). وهكذا يسوء سبك النص . وقد جاءت الرتبة معكوسة أيضا في قوله تعالي: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ » (البقرة ٢٦٩) لأن الرتبة لو جاءت علي أصلها لوقع اللبس من حيث يظن السامع أن الحكمة مفعول به للفعل «يشاء» .

٤ – قال تعالي : «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (البقرة ١٩٠) . فصل بالجار والمجرور بين الفعل «قاتلوا» والمفعول به «الذين يقاتلونكم» لأن الجار والمجرور كما هو معلوم من تتمة معني الفعل . ولو تأخر الجار والمجرور فجاء بعد «الذين يقاتلوكم» لتعلق الجار والمجرور بالفعل «يقاتلونكم» وانقلب المعني فصار الكفار هم الذين يقاتلون في سبيل الله .

٥ – قال تعالي «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (البقرة ١٠١) فاعل الفعل «نبذ» موصوف بجار ومجرور موصول في محل جر وصلته قبل أن يأتي المفعول به «كتاب الله» . ولكون الموصوف وصفته مترابطين كالشيء الواحد لانجد في تركيب الجملة أمرا يحول دون وضوح المعني . أضف إلي ذلك أن رتبة عناصر الجملة جاءت علي أصلها .

الموصوف وصفته :

١ - قال تعالي : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ» (سبأ ٣) فصل بجواب القسم «لتأتينكم» بين المقسم به «وربي» وصفته «عالم الغيب» لأن جواب القسم كان رداً علي جحدهم مجيء الساعة. ومن ثم كان ايراد الجواب مؤكدا بالنون الثقيلة هو الغرض الذي سيق الخطاب من أجله ، فكان أولي بالتقديم من إيراد صفة من صفات الله تعالي لا مراء في اتصافه بها .

٢ - قال تعالي : « قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ » (سبأ ٤٨) . قرأ بنصب «علام» قوم منهم عيسي وابن إسحق وزيد بن علي وابن أبي عبلة وأبو حيوة وحرب بن طلحة ، وقرأ الجمهور بالرفع . فعلي نصب «علام» تتجلي أهمية خبر «إن» وهو «يقذف بالحق» بالنسبة لسياق النص ، لأن النص يبدأ باتهامهم القرآن بأنه «إفك وسحر» ، يقول سبحانه قبل ذلك بقليل: «وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ» (سبأ ٤٣) . وكانت دعواهم هذه بلا دليل من كتب يدروسونها أو نذر جاءتهم . لهذا دعوا إلي أن يقوموا لله مثني وفرادي ثم يتفكروا في أحوال صاحبهم الذي لم يسألهم أجرا علي التصدي لهدايتهم وسيرون أنه ما بصاحبهم من جنة وأن القرآن حق قذفه الله علام الغيوب وهكذا تعطي قراءة النصب خبر إن رتبة التوسط بين اسمها وصفته.

٣ - مرة أخري نسوق قوله تعالي «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا» (الأنعام ١٥٨) . المراد هذه المرة الإشارة إلي الفصل بين الموصوف وصفته الجملة «لم تكن آمنت ... الخ» بواسطة الفاعل . وقد أشرنا من قبل إلي أن موقع هذا الفاعل من الآية لا يجوز تقديمه ولا تأخيره لأسباب نحوية وأسلوبية . أما نحويا فلو تقدم الفاعل علي المفعول لعاد الضمير منه إلي متأخر لفظا ورتبة ، وأما أسلوبيا فلو تأخر الفاعل إلي ما بعد استيفاء المفعول به لصفته لضعفت

العلاقة بينه وبين فعله ، وساء سبك الجملة ولا سيما لأن هذا الفاعل كلمة مفردة.

٤ – قال تعالي : «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» (النساء ١٣٨ – ١٣٩) . هنا جاء وصف المنافقين بأنهم « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» ، وتعلق الجار والمجرور «بأن لهم عذابا أليما » بالفعل «بشر» فاصلا بين الموصوف «المنافقين» وثفته «الذين يتخذون ...الخ» فكان التركيب كأنه لف ونشر مرتب ، إذ جاء الأول للأول والتالي للتالي . فاستولي الفعل ما تعلق به قبل أن يستوفي المفعول صفته . لو تأخر الجار والمجرور إلي ما بعد صفة المفعول لكان ذلك سببا في ضعف العلاقة بينه وبين الفعل ، وهذا الضعف وجه من وجوه سوء السبك .

٥ – قال تعالي: « إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ... الخ» (النساء ١٤٠ – ١٤١) . فصلت الآية بين الموصوف «المنافقين والكافرين » وصفته «الذين يتربصون» بفاصلين أحدهما الجار والمجرور المتعلق بخبر إن (أي بلفظ «جامع») والثاني توكيد المنافقين والكافرين (أي لفظ «جميعا») ، فهنا أيضا لف ونشر مرتب كالذي مر بنا تحت رقم ٤ السابق . ولو أن الجار والمجرور تأخر إلي ما بعد الصفة لصار التركيب «إن الله جامع المنافقين والكافرين الذين يتربصون بكم في جهنم جميعا» ولفهم من هذا التركيب أن التربص يتم في جهنم لمجيء الجار والمجرور بعد الفعل «يتربصون» .

٦ – قد توصف النكرة بالمعرفة بشرط الفصل بين الموصوف النكرة وصفته بصفة أخري نكرة ، ومن شأن الصفة النكرة أن تخصص الموصوف النكرة فتقربه من التعريف ، ومن ثم يصلح لأن يوصف بالمعرفة . تأمل قوله تعالي :

* «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» (الهمزة ١ – ٢).

* «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» (ق ٢٤ - ٢٦) .

* «هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ» (ق ٣٢ - ٣٣) .

* «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ» (الحديد ٢٣ - ٢٤) .

* «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ» (النساء ٣٦- ٣٧) .

وتأمل ما يقال عند إنتهاء الأذان لآداء الصلاة :

«وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته».

فالفصل بين النكرة وصفتها المعرفة بصفة أخري نكرة شرط لوصف النكرة بالمعرفة .

الفصل بين المتعاطفين :

١ - قال تعالي : في آخر سورة الفاتحة : «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ» ومن العبارات التي نرددها في الدعاء قولنا «غير ضالين ولا مضلين» بعطف منفي علي منفي آخر . والمعروف أن المنفيين المتعاطفين قد يسبق نفي أولهما ب ما أو «لا» أو «غير» . فإذا نفي الأول ب «ما» فإن المعطوف قد ينفي ب «ما» أو ب «لا» كما في قوله تعالي : «وما قتلوه وما صلبوه»(النساء ١٥٧)، (أي لم يحدث أي من الحدثين بقطع النظر عن حدوث الآخر)، وقوله جل شأنه : «فما لنا من شافعين ولا صديق حميم» (الشعراء ١٠١). وانظر إلي قوله تعالي : «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (يونس ٦١) . أما إذا نفي الأول ب «غير» أو ب «لا» فليس في الثاني

إلا أن يعطف ب «لا» نحو قوله تعالي «فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ»(القيامة ٣١) وما سبق من عبارة «غير ضالين ولا مضلين» . بهذا يسهل علينا فهم طبيعة اجتماع النفي والعطف في قوله تعالي : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ» (الأحزاب ٥٣) . أي أن النفي هنا يجمع بين الأمرين علي رغم طول الاعتراض بين المتعاطفين اللذين يجمع بينهما النفي في عبارة «غير ناظرين إناه ولا مستأنسين لحديث» . فالنفي لهما معا ، وقد فصل الاعتراض بالاستدراك القائل «ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا» لسبب مهم هو بيان شرط الدخول المقبول ، ومن ثم كان في موضعه الذي يحظي فيه بالاستحسان .

٢ - قال تعالي : «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ» (المائدة ٩٧) . وقع الفصل بين الكعبة والشهر بالإبدال من الكعبة بذكر «البيت الحرام» وبثاني مفعولي «جعل» وهو «قياما للناس» فطالت المسافة بين المتعاطفين . ولكن القرينة الإعرابية وهي نصب «الشهر» دلت علي أن الشهر معطوف علي الكعبة .

٣ - قال سبحانه : «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» (مريم ٣٠ - ٣٢) لو تمسكنا بمبدأ القرب لكان لفظ «برا» معطوفا علي «حيا» ولكان المعني : (وأصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا وبرا بوالدتي) . ولكن القرينة أعانت علي فهم رابطة العطف بين «جعلني نبيا» وبين «برا» . تلك القرينة هي ما يتلو ذلك من النص بعد قوله : «وبرا بوالدتي» مباشرة من قوله تعالي : «ولم يجعلني جبارا شقيا» . وإنما يعد ذلك قرينة بسبب التضاد بين البر والجبروت والشقاء ، وكذلك التضاد بين «جعلني» التي في مطلع الآية و «لم يجعلني» التي في آخرها . ثم إن أالذي

في أداء الصلاة الذي في قوله تعالي : «وأوصاني بالصلاة والزكاة» لا يتوقف الأمر به علي أن يكون المرء برا بوالدته بحيث ... إذا توقف عن البر توقف عن أداء الصلاة .

٤ - قال تعالي : «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ» (التحريم ١١ - ١٢) . هنا أيضا لو تمسكنا بمبدأ القرب بين المتعاطفين لكانت مريم عطفا علي القوم الظالمين ، ولكن القرينة تحول دون ذلك . أولا بسبب الإعراب : فإعراب القوم الظالمين بالجر وإعراب مريم بالنصب ، ثانيا الموازنة بين إمرأتين عاصيتين هما إمرأة نوح وإمرأة لوط وإمرأتين صالحتين هما إمرأة فرعون ومريم ابنة عمران . فلا يمكن لمريم أن تكون من القوم الظالمين ولا أن تكون معطوفة عليهم في هذه الآية.

٥ - قال تعالي : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ » (البقرة ٢١٧) . يمتنع عطف الصد عن سبيل الله علي لفظ «قتال» علي رغم القرب ورغم احتمال وجاهة المعني ؛ (لأن القتال في الشهر الحرام يمكن أن يكون صدا عن سبيل الله) . ذلك أن عبارة «وكفر به» معطوفة علي الصد . وإذا صح أن يكون هذا القتال صدا عن سبيل الله فلا يصح أن يرقي (أو ينحط) إلي درجة الكفر به . وبذا يكون قوله : «وصد» مبتدأ لجملة مستأنفة . ثانيا يحول دون عطف المسجد الحرام علي الضمير في «به» وهو أقرب شيء إليه أمران : الأول أن الضمير المذكور يعود علي لفظ الجلالة من قوله : «عن سبيل الله» ، والكفر يكون بالله وليس بالمسجد الحرام ، وثانيهما أن العطف علي الضمير المتصل الذي جر محله بالحرف لايعطف عليه إلا بعد تكرار حرف العطف . وذلك أن يقال : (وبالمسجد الحرام) . وهكذا يكون المعني : وصد عن المسجد الحرام .

٦ - قال تعالي : «إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ

الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (آل عمران ٤٥ – ٤٩).
لو نظرنا في هذه الآيات عما يمكن أن يعطف عليه قوله «ورسولا» ما وجدنا معطوفا عليه أولي من لفظ «وجيها» ، أي أن اللّه يبشر مريم بالمسيح وجيها ورسولا . ولا يحسن بالطبع عطفه علي «كهلا» لأن الرسول من شأنه أن يكلم الناس ، وبذا يكون النص علي كلامه للناس حشوا لا مبرر له ، والقرآن منزه عن الحشو .

٧ – قال تعالي : «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ» (النساء ١٢٧) . المفتي في هذه الآية هو اللّه سبحانه وتعالي وما اشتمل عليه كتابه . وموضوع الفتوي هو النساء والمستضعفين من الوالدان . ولايجوز رغم القرب أن نعطف «مايتلي» علي الضمير في «فيهن» لأن ما يتلي هو بطبيعة الحال نصوص الفتوي ، ولأن هذا العطف يقتضي تكرار حرف العطف كما سبق منذ قليل . أما عدم جواز عطف «المستضعفين» علي الضمير في «تنكحوهن» فأوضح من أن يشار إليه إن لم تقم من النحو قاعدة تحول دونه . أي أن القرينة هنا خارجية لا نحوية .

الحال وصاحب الحال :

إذا تعددت عناصر أحد طرفي العلاقة النحوية كما في تعدد الخبر والنعت والمعطوفات والأحوال الخ فأولي هذه العناصر بالقرب من الطرف الآخر ، أي المبتدأ أو المنعوت أو المعطوف عليه أو صاحب الحال الخ هو أقصر العناصر المتعددة ثم يليه في الذكر ما هو أطول منه وهكذا . انظر مثلا إلي ما يلي :

قال تعالي : «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ» (البقرة ١٧٣) . ستري عددامن المعطوفات توالت في هذه اية أولها وثانيها (الميتة والدم) لفظان مفردان والثالث (لحم الخنزير) مركب إضافي أطول من المفرد ، والرابع موصول وصلته الجملة (ما أهل به لغير الله) وهو أطول مما سبق . وكذلك تلحظ هذه الطريقة من طرق الرصف في تعدد النعوت في قوله تعالي : «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ » (الكهف ٥٨) . فقد بديء النعت باللفظ المفرد ثم تلاه المركب الإضافي ثم جاء بعدهما الخبر . هذا هو الأسلوب الأشهر والأخف علي اللسان. أما إذا وجد ما يقتضي العكس وقامت القرائن بحراسة المعني فلا مانع من تقديم أطول العنصرين علي أقصرهما كما في قوله تعالي : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ» (الكهف ١-٢) فهناك حالان أولاهما «ولم يجعل له عوجا» أطول من ثانيتهما «قيما» . والمعني : أنزله مستقيما«قيما» . فما الذي اقتضي عكس الترتيب وما القرينة التي حفظت المعني أن يرتبك؟ والجواب أن الذي حفظ المعني أن لفظ «قيما» كان بحاجة إلي شرح المقصود بالقوامة ومن ثم جاء هذا الشرح فيما لحقه من قوله تعالي «لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين ... الخ» والقرينة التي حفظت المعني أن لفظ «قيما» وما لحقه بينهما من الصلة ما جعلهما شيئا واحدا هو أطول مما سبقه من عبارة «ولم يجعل له عوجا» . فلو تقدم لفظ «قيما» وما لحقه علي ما قبله لتأثرت جودة السبك .

الحرف ومدخوله :

قال تعالي : «وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» (هود ١١١) . نسب النحاة إلي هذه الآية تقديرا نحويا يجعل «لما » جازمة حذف المضارع المجزوم بها لدلالة ما بعده عليه . والتقدير : (وإن كلا لما يوفوا ليوفينهم ربك أعمالهم) ، وهكذا صارت الجملة الواحدة جملتين ثانيتهما مستأنفة (أي منقطعة العلاقة النحوية بما سبقها ، وإن ظلت بينهما علاقة دلالية بمعني

الاستدراك ، أي : لكن ليوفينهم) . والأمر فيما يبدو علي غير ما قدره النحاة . وقبل أن نعارض تقدير النحاة ينبغي أن نسوق الآيات الكريمة التالية :

* « وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» (هود ١١١)

* «وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ» (يس ٣٢)

* « وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الزخرف ٣٥) .

* « إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » (الطارق ٤) .

ولقد قدر النحاة «لما» في هذه الايات بمعني «إلا» وربطوا بينها وبين «إن» في أول كل من هذه التراكيب ، فجعلوا «إن» نافية ونسبوا معني التركيب إلي القصر البلاغي . والأمر هنا أيضاً علي غير ما يقوله هؤلاء . فالمعروف أن التكرار والزيادة وسيلتان من وسائل التوكيد ، أما التكرار فأشهر استعماله في التأكيد ما يعرف باسم التأكيد اللفظي ، وأما الزيادة فهي وسيلة مشهورة كذلك من وسائل التوكيد . ويشهد للتكرار قول الشاعر:

ألا يا سلمي يادرار مي علي البلي ولا زال منهلا بجرعائك القطر

فقد كرر أداة النداء عندما دعاه حرصه علي الدار إلي التعجيل بالدعاء لها بالسلامة قبل ذكر المنادي فكرر الحرف مع المنادي . يشهد للزيادة من أجل التأكيد قوله تعالي : «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» (الواقعة ٧٥-٧٦) . فلو زعمنا أن «لا» في «فلا أقسم» أصلية للتعبير عن معني النفي لوقعنا في التناقض بين نفي القسم وكونه قسما عظيما . إذا عرفنا هذا فبنا أن ننظر نظرة جديدة إلي الآيات السابقة، وسنجد أن اللام في الآيات الثلاث الأخيرة هي اللام المزحلقة التي تصاحب «إن» المخففة من الثقيلة والتقدير علي التوالي : وإن كل لجميع لدينا محضرون ، وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ، وإن كل نفس لعليها حافظ . و«ما» زائدة في كل ذلك . ويصدق ذلك علي «لما» التي في الآية الأولي ، فاللام هي المزحلقة و «ما» هي الزائدة . ولما كان تركيبهما معا

شبيها بلما الجازمة وكانتا داخلتين علي المضارع الذي من شأنه أن يلي «لما» تكررت اللام لأمن اللبس فكان تكرارها في الآية شبيها بتكرار حرف النداء في بيت الشعز المذكور منذ قليل . والتكرار فيهما مقصود لإفادة التأكيد ولا ضرورة في البيت فقد كان للشاعز مندوحة دون التكرار بأن يقول: ألا فاسلمي يا دار مي علي البلي .

الجار والمجرور والمتعلق :

١ – قال تعالي : «**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**» (الرعد ١١) . لو علقنا الجار والمجرور بأقرب ما يصلح لذلك لجعلنا المعقبات تحفظ من إنفاذ أمر اللّه – تعالي اللّه عن ذلك – أما ما يستقيم به المعني فهو التعليق بصفة مقدرة للفظ «معقبات» يتعلق بها كل جار ومجرور بالاية.فالمعقبات موصوفة بأنها من بين يديه ومن خلفه ومن أمر اللّه ، والمقصود بالمعقبات ملائكة مسخرة من أمر اللّه .

٢ – قال تعالي : «**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**» (القصص ٣٠) . أقرب ما يصلح أن يتعلق به الجار والمجرور «من الشجرة» هو صفة البقعة ، أي أن البقعة بهذا التعليق تصبح من الشجرة . ولكن الشجرة لايمكن أن تشتمل علي بقع مباركة أو غير مباركة . بذا ينبغي أن نبحث عن متعلق آخر يستقيم به المعني . وسنجد أن هذا المتعلق هو الفعل «نودي» ، أي أن النداء كان من الشجرة .

٣ – لكن قد تقوم قرينة علي أن الجار والمجرور متعلق بأقرب مذكور كما في قوله تعالي : « **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**» (الأحزاب ١٦) . في الآية لفظان يصلحان أن يتعلق الجار والمجرور بأي منهما ، أولهما المصدر «الفرار» والثاني الفعل «فررتم» ، ويختلف تقدير التركيب مع التعليق بأحدهما عنه مع التعليق بالآخر علي النحو التالي :

* قل لن ينفعكم الفرار من الموت أو القتل إن فررتم .

* قل إن فررتم من الموت أو القتل فلن ينفعكم الفرار .

فالفعل «فررتم» حدث غير متوقع في الحالة الأولي ولكنه فعل شرط متوقع حدوثه في الحالة الثانية . والمعروف أن المصدر حدث بلا زمن ولكن الفعل حدث وزمن ، وإن الزمن إن كان بعض معني الفعل فهو كل معني ظرف الزمان . فإذا ورد ظرف الزمان «إذن» فإنه يشير إلي زمن سبق التعبير عنه ، وهذا يتحقق هنا في الفعل لافي المصدر . وبذا يكون «من الموت» متعلقا بالفعل «فررتم» ، ويكون التقدير وإذا فررتم لا تمتعون إلا قليلا.

٤ - قال تعالي : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» (الحاقة ١٩ - ٢٢) . أقرب ما يمكن أن يتعلق به قوله «في جنة» هو لفظ «راضية» ولكن المعني الأوضح من السياق يتعلق بالأخبار عنه لا بوصف عيشته ، فيكون المعني : فهو في عيشة راضية وهو أيضا في جنة عالية .

المستثنى منه والمستثنى :

١ - قال تعالي : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» (هود ٨١) . لو تمسكنا بمبدأ القرب لقلنا المستثني منه لفظ «أحد» ، ولكان المعني علي استثناء المرأة المذكورة من النهي عن الإلتفات . أما قوله تعالي : «إنه مصيبها ما أصابهم» فقد جعل إستثناء هذه المرأة من الأهل . والمعني : (فأسر بأهلك إلا إمرأتك) علي الرغم من بعد المستثني من المستثني منه .

٢ - قال تعالي : «ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا» (البقرة ٢٨٢) طال الخبر بتوا لي المعطوفات (أقسط ... وأقوم ... وأدني) ولكل من

عناصر العطف ما يتعلق به ، وقد سبق أن أشرنا إلي أن ما عطف علي الشيء فهو منه وله حكمه . ومعني هذا أن الإستثناء مستخرج من الجملة الخبرية ذلكم أقسط ... الخ) دون فصل بين عناصرها .

٣ - قال تعالي : «وَمَا يَعْزُبُ عن رَّبِّكَ من مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (يونس ٦١) . معني الآية والله أعلم : وما يترك ربك من شيء مهما صغر في الأرض ولا في السماء إلا مثبتاً في كتاب مبين . فالمستثني هو الإثبات في الكتاب ، والمستثني منه مطلق ما يقع في علم الله مما تتمثل عليه الأرض والسماء . ولقد طال المستثني منه وهو (من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) . ولكن سبب طوله هو العطف وقد سبق القول إن المعطوفات كالشيء الواحد . ويجوز أن يكون الفعل «يعزب» جاء علي معناه الأصلي (أي يبعد) وأن تكون إلا بمعني «لكن» .

٤ - قال تعالي : «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً » (الكهف ٥٥) والمعني والله أعلم : (وما حال بين الناس وبين الإيمان إلا أن حقت عليهم كلمة العذاب فكفروا لينزل العذاب بساحتهم) . هنا أيضا نجد العطف هو سبب البعد بين المسبب (المستثنى منه) والسبب (المستثني) ولا بأس بهذا البعد بسبب العطف.

٥ - قال تعالي : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ » (الحج ٥٢) . المستثني منه نفي الإرسال مطلقاً لجميع الرسل ، والمستثني رسول أو نبي تمني . وقد طال المستثني منه بالعطف في قوله تعالي : « من رسول ولا نبي» مسبوقاً بالجار والمجرور «من قبلك» . والبعد بسبب العطف موضع تسامح كما سبق ، فهو كلا بعد . والنص القرآني يرشد عند الاستقراء إلي كذب ما سيق هذا النص من أجله وهو قصة الغرانيق .

٦ – قال تعالي : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ » (هود ٨١) . «إلا » حرف إستثناء يخرج المستثني من حكم المستثني منه ، (أي يخرج إمرأته من مجموع أهله) . فالمعني : فأسر بأهلك إلا إمرأتك . وقد فصل بين الطرفين بقوله تعالي : «واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد» . والمعني واضح علي رغم طول الفصل .

التكرار تجنباً لأثر البعد :

أشرنا من قبل إلي أن أية علاقة نحوية أو أسلوبية بين عنصرين من عناصر السياق إنما تكون أكثر وضوحاً مع قرب أحدهما من الآخر منها عند بعده عنه . ومن هنا يلزم وجود القرينة عند بعد أحدهما عن الآخر . ولكن هذه القرينة قد لا تتحقق أحياناً مع مطل أول العنصرين أو بعده بالفصل أو الإعتراض ، وعندئذ يتكرر ذكر العنصر الأول ليقترب بالتكرار من العنصر الآخر ، فيكون التكرار وسيلة لإنشاء القرب بعد البعد . انظر مثلاً إلي الشواهد التالية :

١ – قال تعالي : «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» (البقرة ٢٥٣) . الأصل في تركيب هذه الآية : ولو شاء اللّه ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولكن اللّه يفعل ما يريد . غير أن الجملة الاستدراكية التي تقول «ولكن اللّه يفعل ما يريد » حيل بينها وبين الجملة الأصلية التي تسبقها بعبارة «ولو شاء اللّه ما اقتتلوا». والعنصر الذي اعترض السياق قبل هذه العبارة مباشرة هو جملة استدراكية أخري تقول : «ولكن اختلفوا فمنهم من آن ومنهم من كفر» . هذه الجملة المعترضة باعدت ما بين صدر الكلام وعجزه فضعفت الصلة بينهما ، ومن هنا أصبح علاج هذا الضعف يتمثل في تكرار «ولو شاء اللّه ما اقتتلوا » فقرب صدر الكلام من عجزه بواسطة التكرار وقويت العلاقة .

٢ – قال تعالي : « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (البقرة ٨٩) . يتمثل التكرار في عبارة «فلما جاءهم» ولو نظرنا إلي الكلمة التي تسبق تكرار المطلع والكلمة الأخري التي تأتي بعده لوجدناهما أيضا مكررتين علي صورة «كفروا» و«كفروا به» ، ولو لم نتفصل إحدي الكلمتين عن الأخري بواسطة التكرار المذكور لبدت ثانية الكلمتين كأنها توكيد لفظي لأختها وليست جوابا للأداة الظرفية الزمانية «لما» . وبذلك يتغير المعني ويحدث اللبس . وهكذا جاء التكرار ليقرب المسافة بين «لما» وجوابها بعد تباعدهما .

٣ – قال تعالي : «لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (آل عمران ١٨٨) . لو لم يوجد التكرار لبدت الآية علي النحو التالي : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب . عندئذ يبدو الجار والمجرور «بمفازة» وكأنه متعلق بالفعل الذي قبله مباشرة وهو «يفعلوا» ، وإذن يتغير المعني ويحدث اللبس . ومن هنا جاء التكرار وسيلة تقريب بين طرفي العلاقة ليقرب بين «تحسبنهم» و«بمفازة» فيكون العنصر المكرر أشبه بقرينة علي إرادة المعني المقصود .

٤ – قال تعالي : «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» (التوبة ٧ – ٨) . يقوم نص الآيتين علي معني الإنكار لمقابلة الخيانة من جانب وبرعاية العهد من الجانب الآخر ؛ إذ كيف يكون للمشركين عهد وإن يظهروا علي المسلمين لا يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة . جاء لفظ «كيف» في أول الآية ثم طال الكلام بالإستثناء لطائفة من المشركين استقاموا علي العهد فضعفت العلاقة بين «كيف» التي في المطلع وبين الجملة

الحالية «وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة» فلو لم تتكرر «كيف» لإعادة إنشا الرابطة بين الإستفهام والجملة الحالية لتحولت واو الحال التي في «وإن يظهروا» إلي معني الإستئناف وهو غير مراد . ومن ثم تكررت «كيف» لتعيد العلاقة إلي حالها التي يقصد إليها المعني .

٥ – قال تعالي : «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ» (النور ٣٥ – ٣٦) . لإدراك قيمة تكرار الجار والمجرور في هذه الآية (في بيوت ... فيها .... فيها ....) دعنا نعرض النص دون تكرار الجار والمجرور هكذا : (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له بالغدو والآصال رجال) . وسنري عندئذ أن العلاقات التي كانت قوية فيما بين عناصر النص ضعفت حتي صلحت جملة «يسبح له بالغدو والآصال رجال» أن تكون إستئنافية دون أن يكون الفعل «يسبح»هو ما يتعلق به «في بيوت» فتكرار لفظ «فيها» مرتين حافظ علي تعلق الجار والمجرور «في بيوت» بكل من «يذكر» و «يسبح» . وبذا يكون التكرار لتجنب أثر البعد .

٦ – قال تعالي : «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ» (المؤمنون ٣٥) . التركيب بدون التكرار (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما مخرجون) . وواضح من هذه الصورة الخالية من التكرار أن العلاقة بين «أن» وخبرها ضعيفة لطول الفاصل ولكون الخبر كلمة مفردة . ولقد سبق في الكلام عن قوله تعالي : «لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل «أن تأخير الفاعل» إيمانها «وإيراده في أول التركيب بعد نهاية صفة المفعول «نفسا» سيضعف العلاقة إلي غير حد بين الفعل وفاعله . وكذلك ذكرنا أن تأخير لفظ «قيما» في قوله تعالي : «ولم يجعل له عوجاً قيماً» ما كان ليحدث لو كان «قيما» لايصح أن يتقدم ويتأخر تفسيره منفصلاً عنه ؛ فكذلك الأمر هنا ، مما جعل تكرار «أنكم» أمراً لا غني عنه .

التفصيل بواسطة «أما» ونحوها :

التفصيل فرع الإجمال إذ يذكر المجمل أولا ثم يجري تفصيله بإحدي الطرق الأسلوبية مثل : «أما ... وأما» بفتح الهمزة أو كسرها ، أو «ومنهم.... ومنهم» أو «هذا ... وهذا» أو «فريق .... وفريق .... الخ . ويمكن أن نورد بعض الشواهد علي هذه الطرق علي الترتيب كما يلي :

* «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ» (الضحي ٩ - ١٠) .
* «وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» (التوبة ١٠٦)
* « مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ» (الأعراف ١٦٨).
* « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ» (النحل ١١٦).
* «وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » (الشوري ٧).
* وليس القرب بين طرفي التفصيل (أو أطرافه) محققا علي هذا النحو دائماً ، إذ قد تبعد «أما» عن «أما» الأخري ، أو «من» ومجرورها عما يعادلها كما في قوله تعالي :

١ - « فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ» (فصلت ١٥ - ١٧) . ويلاحظ ما يلي :

١ - أن «أما» الأولي في الآية رقم ١٥ وأن الثانية في الآية ١٧ . فبينهما مسافة .

٢ - أن الذين آمنوا ليسوا ضمن خطة التفصيل لنجاتهم من العذاب، ومن ثم لم تسبقهم «أما» .

ب - « وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ» (التوبة ٦١) .

«ومنهم مَنْ عاهد اللَّه لئنْ آتانا من فضْله لنصَّدَّقنَّ ولنكونَنَّ من الصَّالحين (٧٥) فلمَّا آتاهم مِن فضْله بَخلوا به وتولَّوْا وَّهم مُّعرِضُونَ» (التوبة ٧٥ - ٧٦) .

« ومِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ» (التوبة ٩٨) .

« ومِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ » (التوبة ٩٩).

«وممَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»(التوبة ١٠١).

هذا ويلاحظ أن هذه الآيات من سورة التوبة تفصل القول في سلوك طوائف من أهل المدينة وبمن حولها من الأعراب لتبصر النبي صلي اللّه عليه وسلم والمؤمنين بالمنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين ومن يتربصون الدوائر بالمسلمين ليكون المسلمون علي بصيرة بهم وحذر منهم .

وقد تحذف «من» الثانية وما يمكن أن تدخل عليه مع بقاء واو العطف كما في قوله تعالي : «وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» (الأعراف ٨٧) أي وطائفة منكم لم يؤمنوا .

«يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» (هود ١٠٥) . أي ومنهم سعيد .

« وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » (التوبة ١٠٢) . أي ومن الأعراب آخرون .

والتفصيل إذ يكون واضحاً في هذه الأساليب المختلفة علي رغم البعد ما بين طرفيه إنما هو القرينة التي تغني عن أية قرينة أخري .

مكنونات الضمائر
فى النص القرآنى الكريم

المقصود بالضمائر ما وضعته من الكلم تحت هذا العنوان في كتاب اللغة العربية معناها ومبناها من ضمائر الأشخاص والإشارات والموصولات. وذلك ضمن تقسيم جديد للكلم في اللغة العربية . ولقد قبل النحاة قول ابن مالك في الألفية :

وما لذي غيبة أو حضور كأنت وهو إسم بالضمير

ولو أنصف ابن مالك لأضاف إلي عبارة «أنت وهو» لفظين أخرين أحدهما من الإشارات ليمثل معني الحضور والآخر من الموصولات ليمثل الغيبة ، وبذلك يشمل مصطلح الضمير الأنواع الثلاثة جميعاً . ثم يظل لكل نوع من هذه طرق استعماله وظلال معانيه . وفيما يلي بعض ما يتضمنه استعمال الضمائر بأنواعها الثلاثة من التوسع في الأسلوب القرآني :

أولا : ضمائر الأشخاص :

المعروف أن معاني الضمائر معان عامة (لاتدل علي شيء مفرد) ، ومن ثم يقول النحاة إن من حقها أن تؤدي بالحرف ، وإن اداءها يعد سبباً للبناء للشبه المعنوي بين اللفظ الذي يحمل المعني العام وبين الحرف . والمعاني التي تحملها الضمائر من ثلاثة أنواع هي :

أ – النوع (التذكير والتأنيث).

ب – العدد (الإفراد والتثنية والجمع) .

ج – الوضع (التكلم والخطاب والغيبة).

وهذه المعاني مما يتوقف عليه فهم الضمير في الخطاب ، بمعني أن

المتكلم من شأنه أن يراعي هذه المعاني لأن رعايتها شرط من شروط الإفادة. ومن ذلك ألا يخاطب المؤنث بضمير المذكر ولا المخاطب بضمير المتكلم .

هذا ما يطلبه نظام اللغة ولكن رعاية النظام شيء ورعاية التداوليات شيء آخر . من ذلك مثلاً مخاطبة الغائب بضمير المخاطب ، ويكون ذلك باستحضار الغائب بالتجريد الذهني لمخاطبته في أمر يهم المتكلم ، وعندئذ يقال : «جرد الشاعر من نفسه شخصاً وخاطبه» ، لأن خطاب التجريد يختلف عن خطاب الحضور . وحين قال أمرؤ القيس :

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل بسقط اللوي بين الدخول فحومل

جرد من نفسه مخاطبين لا مخاطباً واحداً ، ولم يكن لهدين المخاطبين حقيقة واقعة وذلك علي عكس ما يقول به نظام اللغة من حضور المخاطب .

ومن ذلك أيضا أن اختلاف المواقف الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب يسمح ، بل يقضي أحيانا في كثير من الظروف ، أن يخاطب المتكلم السامع المفرد الذي هو أعلي منه درجة في السلم الاجتماعي بضمير الجماعة . فيقول له وهو مفرد : «أهلا بكم وسهلا ، وقد شرفتمونا بزيارتكم». وسيعلم المخاطب عندئذ أنه ليس موضع ترحيب فحسب ، بل هو موضع احترام كذلك . والمتكلم الذي هو أعلي قدراً من السامعين يبيح لنفسه أيضاً أن يشير إلي شخصه المفرد بضمير الجمع ، فيقول : «نحن كذا وكذا قررنا ما يلي : ....» أما في حال الإشارة إلي الغائب فإن الاحترام يكون بإضافة الصفة الداعية إلي الاحترام إلي الغائب أو ضميره، فيقال : «جلالة الملك» أو «سمو الأمير» أو «سيادة الرئيس» أو «معالي الوزير» أو غير ذلك من صفات التكريم . أو يقال : جلالته وسموه وسيادته ومعاليه ويظل الضمير علي حاله.

هنا يمكن أن نتناول أسلوب القرآن الكريم فيما يتصل باستعمال الضمائر ، سواء ما يقوله المتكلم وما يتقبله السامع . فالذين يذكرون الله بضمير الخطاب يقولون : «أنت» بضمير المفرد علي عكس ما في الحياة

الإجتماعية الإنسانية ، وإن ذكروه في غير الخطاب فذلك بضمير المفرد «هو». ومن شواهد ذلك بالنسبة للخطاب :

* « إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » (البقرة ٣٢) .

* « أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (البقرة ٢٨٦) .

* «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ » (المائدة ١١٧) .

* «فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » (يوسف ١٠١) .

ومن شواهد ضمير الغيبة :

* «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا» (البقرة ٢٩) .

* «قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ » (البقرة ١٣٩) .

* «لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » (البقرة ١٦٣) .

* «اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » (آل عمران) .

لقد رأينا في هذه الشواهد إطراد الإفراد في ضميري الخطاب والغيبة عند ذكر الله تعالي ، وذلك تجنباً لظن الوقوع في التعدد الذي يفهم من ضمير الجمع . فلو خوطب سبحانه بضمير الجمع لكان من الممكن للسامع غير المسلم أن يفهم من الضمير أنه يشير إلي جماعة من المخاطبين، أو يفهم من ضمير الغيبة إشارة إلي التعدد أيضاً .

هذا فيما يتصل بضميري الخطاب والغيبة ، أما فيما يتصل بضمير التكلّم فإن الله تعالي يستعمل ضمير المتكلم المفرد حينا وضمير المعظم ذاته حيناً آخر ، بحسب سياق النص . أما ضمير المتكلم المفرد فيكون استعماله عندما يكون الكلام موجها إلي المقربين أو المعاتبين من عباده كما في قوله تعالي :

* «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ» (طه ١٢ – ١٣) .

* «إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي» (طه ١٤) .

* «فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (البقرة ١٦٠) .
* «يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (النمل ٩) .
* «تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ » (الممتحنة ١) .

أما بمناسبة ذكر الآلاء والنعم والقدرات الإلهية فإن الله سبحانه يستعمل ضمير الجمع لإعلاء الذات كما نري في الشواهد الآتية :

* «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الحجر ٩) .
* «وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ » (الحجر ٢٣) .
* «نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » (الإسراء ٣١).
* «وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا» (الإسراء ٥٨) .
* «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » (الكهف ١٣) .
* «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ » (مريم ٤٠) .
* «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا» (مريم ٧٠) .
* «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ» (طه ١٠٤ و ق ٤٥) .
* «نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ» (طه ١٣٢) .
* «فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» (القصص ٥٨) .
* «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ» (يس ١٢) .
* «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » (الزخرف ٣٢) .
* «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (ق ١٦) .
* «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ» (ق ٤٣) .

* «نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ» (الواقعة ٦٠) .

* «نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ» (الواقعة ٧٣) .

* «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ» (الواقعة ٥٨) .

* « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً» (الإنسان ٢٣) .

* «نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً »(الإنسان٢٨) .

ولعل القرينة النصية الدالة علي أن الضمير «نحن» لايدل علي متعدد هي قوله تعالي في سورة طه : « إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي» (طه ١٤) . وقد سبق ذكر هذا الشاهد .

ومما يمكن أن يضاف إلي المعاني العدولية الأسلوبية للضمائر ما يقصد بها من الدلالة علي الشأن أو القصة بحيث يصبح الشأن مرجعاً متأخراً للضمير ، فإذا كان الضمير مذكرا سمي ضمير الشأن وإن كان مؤنثا قيل له ضمير القصة . ومن شواهد ذلك :

* «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)» (الإخلاص ١ - ٤) .

* فالشأن الذي عاد عليه الضمير هو «الله أحد الله الصمد» أما ما بعد ذلك إلي نهاية السورة فهو كلام مفسر لكلمة «الصمد» .

* «إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ» (طه ٧٤).

* «فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الحج ٤٦).

* « يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (النمل ٩).

فما بعد الضمير في كل ذلك هو مرجع الضمير .

ثانياً : ضمائر الإشارة :

وقد يشار إلي كلام لاحق بضمير إشارة فلا يكون ثمة فارق بينه وبين ما يسمي ضمير الشأن ومن ذلك ما في قوله تعالي :

* «ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ» (آل عمران ٥٩) . فمرجع الضمير «ذلك» هو قوله «إن مثل عيسي ... الخ.».

* «فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ....» (البقرة ٣٧ – ٣٨) . فالكلمات هي «قلنا اهبطوا .... الخ».

ويمكن كذلك أن يشار إلي كلام سابق بضمير إشارة يتلوه واو العطف (وذلك شرط فيما نقصد) ومن ذلك قوله تعالي :

* «وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ » (الحج ٢٧ – ٣٠) . ومثله قوله تعالي :

* «ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ » (الحج ٣٢) .

فقوله «ذلك «إشارة إلي الشأن السابق في الكلام ، والواو عاطفة علي ما يلي . أي أن من الشأن النحوي ما يكون مرجعاً لضمير الإشارة ، سبقه ضمير الإشارة أو لحقه .

وكما حمل الضمير الشخصي «نحن» شحنة الاحترام وجدنا بعض الضمائر الإشارية يحمل شحنة من المعني الإضافي أيضاً وذلك في النص القرآني كذلك . فللإشارة إلي الجماعة ضميران هما «أولئك» و «هؤلاء» . فأما أولئك فيشار به دون نية تكريم أو إنتقاص ، ولكن استعمال «هؤلاء» في

النص القرآني يحمل من إرادة الإنتقاص قدراً لايخفي علي ذي فهم . يكفي أن نقرأ لفظ «هؤلاء» في الشواهد التالية لنعرف أن المشار إليهم غير محل رضى ، وإليك ما يلي من شواهد ذلك :

* «فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» (البقرة ٣١) .

* « ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ» (البقرة ٨٥) .

* «هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ» (آل عمران ٦٦) .

* «هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ » (آل عمران ١١٩) .

* «وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً»(النساء ٥١) .

* «فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا » (النساء ٧٨) .

* «هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (النساء ١٠٩).

* «مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ » (النساء ١٤٣).

* «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ » (المائدة ٥٣).

* «وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا» (الأنعام ٥٢).

* «فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ»(الأنعام ٨٩).

* « وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ» (يونس ١٨).

* «وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» (هود ١٨)

* «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » (هود ٧٨).
* «فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِن قَبْلُ» (هود ١٠٩) .
* «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ» (الحجر ٦٦).
* « قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ» (الحجر ٦٨) .
* «قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ» (الحجر ٧١).
* «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ » (النحل ٨٩) .
* «هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » (الكهف ١٥) .
* «بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » (الأنبياء ٤٤).
* «ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ » (الأنبياء ٦٥) .
* «لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ» (الأنبياء ٩٩) .
* « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ» (الفرقان ١٧).
* «إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ»(الشعراء ٥٤ – ٥٥) .
* «وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ » (ص ١٥) .
* « وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ» (الزمر ٥١) .
* «وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ» (الزخرف ٨٨) .
* «إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ» (الدخان ٣٤ – ٣٥) .
* «هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ» (محمد ٣٨).

* «إنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً» (الإنسان ٢٧).
* «وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ» (المطففين ٣٢ - ٣٣).

ومن أساليب الإشارة ما أسميه : «الإشارة علي الشيوع» . وذلك هو الإشارة إلي غير معيّن . ومن ذلك أن تقول لسامعك مثلا : إما أن تكون صديقي أو عدوّي ، «اختر هذه أو تلك» . فذلك في قوة قولك : اختر أيهما شئت ، وهكذا تكون الإشارة علي الشيوع وقد جاء في سورة الإسراء (٦٦ - ٧٢) شيء من هذا القبيل . وذلك ما نصادفه في قوله تعالي « وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً». وإليك ما نفهمه من معني «هذه» و «الآخرة» .

١ - يسّر اللّه للإنسان طلب الرزق في البحر	٢ - ولكن في ركوب البحر خطراً .
اللّه تعالي ينقذ الإنسان من أخطار البحر	ولكن الإنسان يعرض عن شكر الله
الله قادر علي إعادة الإنسان إلي خطر البحر	وقادر علي عقابه في البر أيضا
سيحاسب اللّه عباده يوم القيامه .	

فمن حسن عمله نجا ، ومن ساء عمله في أي من هاتين البيئتين بالإعراض عن شكر النعمة فلن ينفعه الشكر للنعمة الأخري . وهكذا تصلح «هذه» للإشارة إلي أي واحد من المرجعين دون تعيين .

ثالثاً : ضمائر الغيبة :

سبق أن ذكرنا معني الغيبة في الكلام عن اتخاذ فكرة ضمير الشأن في مقدمة للكلام عن دلالة ضمائر الإشارة علي ما يسبقها وما يليها ،

وعددنا هنا صورة أخري لضمير الشأن . وذلك أن نتناول وسيلة أخري للدلالة علي الغيبة بواسطة ما تكنه «ال» الدالة علي الجنس وكذا الدالة علي العهد . ولست أريد الكلام هنا عن مطلق الجنس ، لأن دلالة «ال» علي مطلق الجنس لاتضيف إلي المعني ظلا معها . ولكني أشير إلي نوع من الجنس أسميه : «الجنس النسبي» ، لأن مدلول هذه التسمية لايستقل بالوجود ؛ وإنما يوجد منسوبا إلي مفهوم آخر . ففي قوله تعالي : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ» (النازعات ٤٠) دل لفظ «النفس» علي صاحب النفس ، لأن لكل حي نفسا تنسب إليه وينسب إليها . ولذلك كانت النفس دالة علي جنس من الأجناس لايستقل بوجود خاص . ومن ثم كان من قبيل الجنس النسبي الذي يدل علي ما نسب إليه . ومنه :

* «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» (الأحزاب ١٠) .
* « أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (الرعد ٢٨) .
* «وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ» (الأنفال ١١).
* «إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ» (النجم ٢٣) .

فالقلوب والحناجر والأقدام والظن والأنفس كل أولئك يفهم بالنسبة إلي ذويه ، ومن ثم سميت هذا الجنس بالجنس النسبي .

وتبقي بعد ذلك «ال» الدالة علي تعهد . ولقد سبق بيان معني العهد بأنه «المعرفة السابقة». وقد يكون السبق سبقا للذكر كما مضي نحو : «وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ» (يوسف ٥٨) ، وقد يكون سبقا لمجرد المعرفة الذهنية كما في قوله تعالي : « النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ » (الأحزاب ٦) . ومع أن ذاكرة العهد قد ترتبط بسبق الذكر فتكون «ال» بمعني «المذكور» أو بسبق المعرفة العامة فتكون بمعني «المعهود»، فإن فكرة الحضور بالنسبة لهذه الذاكرة أضعف من أن تقاوم فكرة السبق . وبذلك أري أن المعهود بواسطة «ال» يعد أقرب إلي ضمائر الغيبة منه إلي ضمائر الحضور .

إجراءات صرفية في تقلبات التاء الزائدة

في صرف الافتعال والتفاعل والتفعّل

أولاً : الإفتعال :

١ - القلب :

* تقلب تاء الإفتعال إلي طاء إذا سبقها حرف مطبق (والمطبقات هي الصاد والضاد والطاء والظاء) وذلك مثل :

* التاء في اصتلح) تقلب إلي طاء كما في (اصطلح).

* والتاء في (اضتر) تقلب إلي طاء كما في (اضطر).

* والتاء في (اطتلع) تقلب إلي طاء كما في (اطّلع).

* والتاء في (اظتلم) تقلب إلي طاء كما في (اظطلم).

* وتقلب تاء الافتعال إلي دال إذا سبقتها :

* الدال كما في (ادتان) إذ - تنقلب إلي (ادّان).

* أو الذال كما في (اذتكر) إذ تنقلب إلي ادّكر).

* أو الزاي كما في (ازتان) إذ تنقلب إلي (ازدان).

يقول ابن مالك في تلخيص هذين الإجراءين:

طا تا افتعال رد إثر مطبق   في ادّان وازدد وادّكر دالا بقي

أما فيما سوي هذين الموقعين (عندما تلي التاء حرفا ليس مما سبق) فإن التاء تظل مستصحبة فلا تنقلب عن صورتها الأصلية ، وذلك كما في :

ائتمر، ابتعد اجتمع ، احتمل ، اختصم ، ارتضي ، اعتنق ، اغتفر ،

افتري ، اقترب ، اكتمل ، التقي ، امتحن ، انتهي ، اهتدي . ولايخرج عن ذلك إلا أن تأتي التاء بعد واو ساكنة فتنقلب الواو إلي تاء وتدغم في تاء الافتعال كما في (اوتصل = اتصل) ، وكذلك عند توالي تاءين مثل (ات - تبع = اتّبع) وتوالي التاء والثاء كما في (اث - ت أر = اثأر) أي أخذ بثأره، وفي تحويل لفظ (اظطلم) إلي (اظّلم) علي سبيل الترخص .

ومن الترخصات القرآنية في صيغة الافتعال بعض الشواهد التي تتحول فيها التاء إلي حرف مقارب للحرف الذي يليها ثم تدغم فيه . والقاعدة الأصولية التي يتم بها هذا التحول تقول : «الحرف الساكن حاجز غير حصين» (ومن ثم يسمح بنقل الحركة من تاليه إليه) . وفيما يلي بعض الشواهد علي هذا الإجراء :

* « أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ» (يونس ٣٥) .

* « مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ» (يس ٤٩) .

وفيما يلي بيان لعلة العدول عن الأصل إلي هذه الترخصات كل علي حدة :

١ - علة العدول عن «يختصمون» إلي «يخصمّون»:

* الخاء ساكنة ، والحرف الساكن حاجز غير حصين .

* نقلت حركة تاء الافتعال إلي الساكن الصحيح قبلها (وهو الخاء) فسكنت التاء .

* التقي متقاربان (تاء الافتعال والصاد) ومن شأن التقائهما أن يدغم أحدهما في الآخر كما في قوله تعالي : « كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ» (الأنعام ١٢٥) فتم هذا الإدغام ، وصار مجموعهما صادا مشددة مكسورة مسبوقة بخاء مفتوحة .

* تحوّل فتح الخاء إلي كسر لمناسبة ما بعده .

٢ – علة العدول عن «يهتدي» إلي يهدّي»:

* الهاء من «يهتدي» ساكنة والحرف الساكن حاجز غير حصين .
* نقلت حركة تاء الافتعال إلي الساكن الصحيح قبلها (وهو الهاء) فسكنت التاء .
* التقي متقاربان هما تاء الافتعال والدال ، ومن شأن التقائهما أن يدغم أحدهما في الآخر كما في قوله تعالي : «وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ» (النساء ٢٠) ولذا وقع الإدغام .
* توالت حركتان مختلفتان هما فتحة الهاء وكسرة الدال المشددة فكسرت الهاء للمناسبة .

وقد اشتملت إجراءات العدول هنا علي القلب والإدغام والنقل والحذف والمناسبة ، وكل ذلك لطلب الخفة .

وفيما يلي طائفة من الشواهد القرآنية التي تظهر استصحاب تاء الافتعال :

* «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ» (آل عمران ١٦٦) .
* « فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (هود ٣٦) .
* «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ» (الحديد ٢٧) .
* «وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» (النساء ١٢٥) .
* «وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا» (الأعراف ٢٠٣) .
* « فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ» (البقرة ٢٦٦) .
* «هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ» (الحج ١٩) .
* «إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ» (ص ٧) .

ثانياً : في التفاعل والتفعّل :

الأمر هنا يختلف عما تقدم لسبب يعود إلي اثنين مهمين من ثوابت النظام اللغوي العربي : أولهما كراهية توالي المثلين ، وثانيهما أمن اللبس . وإليك البيان :

لقد كان في كلامنا عن تاء الافتعال أنه لافرق في أحكامها بين الماضي والمضارع وما عداهما من الصيغ . أما بالنسبة للتفاعل والتفعّل فهناك فرق في رتبة الحروف وفي الإجراء بين هاتين الصيغتين وبين ما رأينا في الافتعال ، وبخاصة بين الماضي والمضارع . ذلك أن رتبة فاء الكلمة والتاء الزائدة تختلف في الافتعال عنها في التفاعل والتفعّل ، كما يبدو من مجرد النظر إلي أسماء الصيغ . أما بين الماضي والمضارع فحسبنا أن نتأمل في أن بنية المضارع تبدأ بأحد حروف المضارعة بخلاف الماضي . فلو كان لدينا فعل ماض مثل «تتبع الباحث مفردات الجملة» وأردنا أن نصرف الباحث عن تتبع المفردات إلي تتبع العلاقات قلنا : «لاتتتبع المفردات ولكن تتبع العلاقات بينها»، وعندئذ نجد لدينا في فعل النهي ثلاثا من التاءات المتوالية بلا فاصل فنعلم وجه الحكم بكراهية توالي الأمثال ، وكذلك نعلم سبب إدغام المثلين . ومن هنا نهش لسماع الشواهد القرآنية التي تشهد لهذه الظاهرة من قبيل ما يلي :

* «مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ» (التوبة ٣٨) .
* « وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا» (البقرة ٧٢) .
* «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ» (البقرة ٢٦٩) .
* « لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ » (عبس ٣ – ٤) .

* «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ» (الصافات ٨) .

* «وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ» (البقرة ٧٤) .

* «كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ» (الأنعام ١٢٥) .

* «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ» (الأعراف ١٣١) .

فالرتبة بين التاء وفاء الكلمة في كل ذلك عكس ما قرره بيت ابن مالك في الألفية بالنسبة للافتعال ، وذلك بقوله : «اثر مطبق» الخ . وكما ذكرنا ما يرد من إجراءات العدول عن أصل الوضع بالنسبة للافتعال يمكن أن نشير هنا إلي ما يرد منها بالنسبة للتفاعل والتفعّل . والأمر هنا أبسط مما كان في حال الافتعال ، لأنه لايتعدي قلب التاء إلي مثل ما يليها لتصير ثاء أو دالا أو غير ذلك كما نراه في الشواهد الأخيرة ، ثم إدغام المثلين أحدهما في الآخر ، فالأمر لايتعدي القلب والإدغام .

أما الثابت الآخر (وهو أمن اللبس) فيمتد البحث في شأنه ليشمل الصور الثلاث للفعل ماضيا ومضارعاً وأمراً ، وليشمل مع ذلك معنيين من معاني الشخص النحوي هما الخطاب والغيبة . ومن ثم يحتاج شرح هذه الظاهرة إلي أن يكون ذلك من خلال جدول الإسناد في صورته الكاملة ، ولو كان المسند في الجدول فعلا واحداً فقط كما يلي :

الضمير	الرقم	أ	ب	ج	ملاحظات
		ماض	مضارع	أمر	
أنا	١	تزكيتُ	أتزكي		**هناك تطابق بين :**
نحن	٢	تزكينا	نتزكي		
أنتَ	٣	تزكيتَ	تتزكي	تزك	ب٣ و ب ٩
أنتِ	٤	تزكيت	تتزكين	تزكي	ج٥ و أ ١٠
أنتما	٥	تزكيتما	تتزكيان	تزكيا	ج٦ و أ ١٢
أنتم	٦	تزكيتم	تتزكون	تزكوا	
أنتن	٧	تزكيتن	تزكين		
هو	٨	تزكي	يتزكي		
هي	٩	تزكتْ	تتزكي		
هما	١٠	تزكيا	يتزكيان		
هما	١١	تزكتا	تتزكيان		
هم	١٢	تزكوا	يتزكون		
هن	١٣	تزكين	يتزكين		

أضف إلي ذلك ما يعرض من اللبس عند الترخص بحرف تاء المضارعة من الصيغ التي تبدأ بتاء التفاعل أو التفعّل فلا يدري المستقبل عندئذ ما إذا كان الفعل ماضيا أم مضارعا إلي أن تقوم قرينة لتعيين أحد احتمالات المعني . وإليك الشواهد التالية علي ذلك :

* «وإن تولوا فإنما هم في شقاق» (البقرة ١٣٧) .
* «فإن تولوا فإن اللّه لا يحب الكافرين» (آل عمران ٣٢) .
* «وإن تولوا فقل حسبي الله» (التوبة ١٢٩) .
* «وإن تظاهرا عليه فإن اللّه هو مولاه» (التحريم ٤) .

ظواهر هامشية في النظام النحوي

النظام النحوي بنية من العلاقات السياقية المجردة التي تجد ما يعبر عنها ويدل عليها في مباني نظامي الأصوات والصرف . فنظام الأصوات يقدم للنظام النحوي العلامة الإعرابية وحروف المعاني وإجراءات العدول عن الأصل والرد إليه والسعي إلي طلب الخفة . والنظام الصرفي يقدم الصيغ والموازين الصرفية وما يعرض لكل منها عن قواعد التصريف واختلاف العناصر الصرفية بين الاستصحاب والعدول . وأما النظام النحوي فوظيفته تحديد العلاقات في السياق بين ما يقدمه كل من النظامين السابقين ، مع الاعتماد علي القرائن الدالة علي أنواع العلاقات مع السعي إلي الوصول إلي أمن اللبس في جميع الحالات . ولقد درج أصحاب كتب النحو بسبب هذه الصلة الوثيقة بين الأنظمة الثلاثة علي أن يجعلوا الأصوات والصرف من مواضيع متون النحو وتعليمه . وهكذا يعتمد النحو العربي علي دعامتين من أهم دعائمه إحداهما من عطاء النظام الصوتي وهي (طلب الخفة) والأخري من مطالب السياق وهي (أمن اللبس) . ولكن هاتين الدعامتين لاتخضعان للقواعد ولذلك أراهما علي رغم أهميتهما من الظواهر الهامشية في النظام النحوي ومن ثم أقرب شبها بمسائل فقه اللغة .

يتضح هذا الطابع الهامشي في موقع هاتين الظاهرتين من النظام النحوي من اهتمام فقه اللغة بإحداهما (طلب الخفة) واهتمام علوم الاتصال بالأخري (أمن اللبس) . جاء في الجزء الأول من كتاب المزهر للسيوطي (ج١ ص ١١٥) «قال ابن دريد في الجمهرة : اعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل علي اللسان منها إذا تباعدت لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفته جرسا واحدا وحركات مختلفة .. الخ» . مما يدل علي رسوخ قدم ظاهرة طلب الخفة في بحوث فقه اللغة . أما دور النظام النحوي بالنسبة لهاتين الظاهرتين فهو الانتفاع بالنتائج مما يبرر وضعهما بين الظواهر الهامشية في البنية

النحوية. إن اعتزاز اللغة العربية بهاتين الظاهرتين له ما يبرره ، لأن اللغة من خلالهما أصبحت أكفأ في الاستعمال من كثير من اللغات المشهورة . دعنا نضرب مثلاً واحداً لتفوق اللغة العربية علي اللغة الإنجليزية في مجال طلب الخفة . إن اللغة العربية ترفض التقاء الساكنين ، وتتخذ من الإجراءات العدولية (عن أصل الوضع) ما يحول بين السياق العربي وهذا النوع من الثقل .

وإذ ترفض اللغة العربية هذا النوع من الثقل نري اللغة الإنجليزية تسمح (في ضوء الفهم العربي لهذه الظاهرة بإلتقاء أربعة سواكن كما في five sixes (أي خمسة أسداس) ، فالكلمة الدالة علي الأسداس تشتمل علي أربعة سواكن كما يلي :

(ك س ث س)

وكلها أصوات مهموسة يزيد الهمس من خفائها علي المقدرة السمعية ومن صعوبة تواليها في النطاق . وليس من السهل علي المتكلم العربي أن ينطقها نطقا سليما ، ذلك لأنه إذا رأي توالي الساكنين ثقيلا فما بالك بتوالي الأربعة؟ ! ومع عدم استعمال النحو لقواعد لتنظيم طلب الخفة نراه يحرص علي الإنتفاع بهذه الظاهرة الهامشية .

إذا تأملنا طابع كل من الظاهرتين السابقتين وجدنا إحداهما وهي «طلب الخفة» لفظية (أي تجد تطبيقا لها في عالم الألفاظ) ، وأما الأخري وهي «أمن اللبس» فتتحقق في عالم المعني . وعند النظر في الظواهر الأخري نجدها أيضا تنقسم هذا النوع من الإنقسام إلي طائفتين إحداهما لفظية والأخري معنوية علي النحو التالي :

اللفظية :

المعاقبة – الموقعية – النقل – الترخص – المشترك اللفظي .

المعنوية :

ظل المعني – لازم المعني – إشراب المعني – مفهوم المخالفة – المجاز.

الظواهر اللفظية

١ - المعاقبة :

معاقبة الشيء لغيره حلوله محله وأداؤه لوظيفته . وقد عني النحاة بتتبع هذه الظاهرة الواحدة ولكنهم أطلقوا عليها طائفة من المصطلحات كما يلي :

* النيابة . كنيابة المفعول عن الفاعل ، ونيابة «كل» و «بعض» عن المصدر كما في قوله تعالى : «فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ»(النساء ١٢٩).
* الإغناء ، كما في قولهم «إن الفعل ترك أغني عن استعمال الفعل المهجور «ودع» بدون تشديد حرف الدال .
* الحلول محل لفظ آخر ، كحلول «يا» محل «أدعو» في النداء .
* السداد مسد لفظ آخر ، كما سدت «أن» وما بعدها مسد مفعولي «ظن» .
* التأويل ، كتأويل الجامد بالمشتق كما في «زيد رجل» .
* العوض ، كتنوين العوض في قوله تعالى : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ» (العنكبوت ٤٠) .
* المنزلة ، كما في قولهم : «ما» نافية بمنزلة «ليس».
* التحويل ، كما في التمييز المحول عن الفاعل أو عن المفعول .
* التشبيه ، كما في قولهم : إن لفظ «رجلا» في نعم زيد رجلا مشبه بالمفعول به .
* التضمين ، وهو استعمال لفظ بإعطائه معني لفظ آخر كما في قوله تعالى : «وَقَدْ أَحْسَنَ بي » (يوسف ١٠٠) أي أحسن إلي (بتشديد الياء) .

استعمل النحاة كل هذه المصطلحات لظاهرة يحددها مصطلح واحد هو المعاقبة .

٢ – الموقعية :

تلك هي الظاهرة التي يسميها اللغويون الأمريكيون : distribution أي التوزيع وهي تجعل موقع العنصر اللغوي جزءاً من معناه . ومن المعروف أن الرتبة (وهي قرينة نحوية) ظاهرة موقعية تكشف عن جزء من المعني إذا كانت محفوظة ، وتعين علي التصرف في الأسلوب والمعني إذا كانت غير محفوظة . وفيما يلي طائفة من الموقعيات التي تنتمي إلي نظام النحو العربي :

* موقع «لم» قبل المضارع واختصاصها به كما في قوله تعالي : «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » (البينة ١).
* موقع الصدارة لأدوات الجمل نحو : « أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ» (النساء ٧٨) . واللجوء إلي حفظ الرتبة غير المحفوظة في بعض الحالات نحو : «إياك نعبد».
* العطف ب «أم» بعد همز التسوية ، نحو «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»(البقرة ٦).
* الوقف بالسكون في آخر القول للدلالة علي الموقع .
* عدم البدء بالساكن فالبدء موقع بعد صمت والساكن أقرب إلي الصمت فلا يوحي للسمع ببدء الكلام .
* التخلص من التقاء الساكنين لتجنب الثقل .
* تفخيم الصوت المرقق إذا جاور صوتا مفخما كما في تحويل تاء الافتعال إلي طاء في نحو : مصطفي – واطلع (بتشديد الطاء) – واظطلم – واصطرخ .
* تكسر الهاء من ضمير الغيبة إذا سبقها كسر أو ياء ساكنة نحو فيه وبه ، وتضم في غير ذلك نحو : له – كتابه – لهم – كتابهم.

* تشبع الحركة في ضمير الغائب إلا لمفرد إذا لحقه متحرك نحو : «له معقبات» وتحتفظ بقصرها إذا تلاها ساكن نحو : « لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ» (القصص ٧٠).

٣ - النقل :

الفرق بين النقل والمعاقبة أن النقل إجراء أسلوبي ولكن المعاقبة ظاهرة نحوية . وفي الحالتين يدل اللفظ علي معني لفظ آخر ، لكنه عند النقل لاتحكمه قاعدة ولا يلغي اللفظ المنقول العودة إلي اللفظ الآخر الذي حل اللفظ المنقول محله . أما في المعاقبة فلا يمكن لنائب الفاعل مثلاً أن يصبح فاعلا ولا للفعل الماضي «ودع» أن يلغي ما عوضه ليدل عني معناه بإضراد ، وهكذا في البقية . وفيما يلي طائفة من حالات النقل في الأسلوب العربي :

* تنقل «إلا» من الاستثناء لتدل علي الاستدراك (أي إلي معني «لكن» كما في قوله تعالي :

« طه ما أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ » (طه ١ -٢) .

« وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ» (الليل ١٩ - ٢٠).

«إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» الانشقاق ٢٥).

* تنقل «هل» إلي معني التعجب كما في قوله تعالي :

«هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُوراً »(الإنسان ١).

«هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (المطففين ٣٦).

«هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ» الفجر ٥).

* تنقل «إذ» إلي معني أداة إستئناف كما في قوله تعالي :

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» .(الأعراف ١٧٢) «أي لقد أخذ» .

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ »(إبراهيم ٧) (أي لقد تأذن) .

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ» (الحجر ٢٨).

والداعي إلي هذا الفهم أن ما يقدره النحاة لتعلق «إذ » بالفعل «أذكر» يتطلب أن يكون النبي حاضرا عند قول اللّه تعالي للمخاطبين هذا الكلام ، ومن ثم يتعلق الظرف بهذا الفعل المقدر .

* تنقل «لو» لمعني النفي كما في قوله تعالي :

«ولَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا» (الرعد ٣١).

أي ما كان لنص يتلي أن تؤدي قراءته إلي تغيير طبائع الأشياء فأمر هذا التغيير كله للّه . دعنا إذن نلق نظرة علي المقصود بتسيير الجبال وقطع الأرض وتكليم الموتي ، وكيف إنتهي أمر كل شيء من ذلك إلي إرادة الله سبحانه وتعالي .

* المقصود بالقرآن أي نص مصدره الوحي يمكن أن يقرأ لإتمام غرض إنساني ما .

تسيير الجبال لايستطيعه إلا اللّه ومن ذلك ما يتردد في كتب الجيولوجيا من كلام عن الحركات التكتونية مثل أخدود البحر الأحمر واختفاء قارة أطلنطس – وابتعاد أمريكا الجنوبية عن أفريقيا بعد تقاربهما .

المقصود بالأرض المسافة التي يقطعها المسافر وقطعها سرعة إنتهائها كما حدث في ليلة الإسراء .

أو كلم به الموتي كما حدث لقتيل سورة البقرة إذ أحياه اللّه بعد ضربه ببعضها وكطيور إبراهيم اللاتي دعاهن فأتينه سعياً . ويدل سياق النص علي أن مثل هذه المعجزات لايتحقق إلا بإرادة اللّه ولايمكن لبشر أن يستعين بقراءة نص ما للوصول إلي إنجاز مثل ذلك .

٤ – الترخص :

حين يذكر الترخص ترد القرائن النحوية علي الذهن ، كما يرد علي الذهن أمن اللبس أيضاً . فالرخصة النحوية إهدار لبعض القرائن عند أمن اللبس . والمعروف أن المقصود باللبس تعدد احتمالات الدلالة علي المعني دون مرجح ، ولايتم أمن اللبس إلا عندما تتضافر القرائن الدالة علي المعني فينكشف المعني المراد دون أن يختلط به أي معني آخر . والقرائن المقصودة هنا هي : الإعراب والبنية والتضام والرتبة والربط والسياق . وسنحاول فيما يلي إيراد بعض الشواهد المشتملة علي ترخص في بعض هذه القرائن :

* العلامة الإعرابية :

قال تعالي : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (المائدة ٦٩) برفع «الصـابئون» وهي معطوفة علي المنصوبات لأن اللبس مأمون بواو العطف والطابع الديني المشترك بين الألفاظ المتعاطفة .

وقال جل شأنه : «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » رفع لفظ «هذان» (طه ٦٣) علي رغم كونه اسما لإن ومع ذلك ظل هذا اللفظ دالاً علي كونه اسما لإن فهناك قاعدة تمنع أن يتوسط بين إن وإسمها غير الظرف أو الجار والمجرور . أي أن القاعدة المذكورة تحكم بأن «هذان» (وهو ليس ظرفاً ولا مجروراً) لايمكن إلا أن يكون هو اسم إن .

قال سبحانه : «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » (يوسف ١١) «كان من المتوقع أن يكون الفعل «تأمن» مرفوعاً بضمه علي النون، ولكن توالي النونين . في لام الفعل وضمير المتكلمين) برر إسكان لام الفعل من أجل إدغامها في نون الضمير طلبا للخفة ولأن اللبس مأمون بسياق النص الذي يدل علي أن إخوة يوسف يلومون أباهم لعدم ثقته بهم . ولولا ذلك لظن السامع أن «لاَ» التي قبل الفعل ناهية . وقد قوي المعني بعد ذلك قولهم : «وإنا له لناصحون».

* البنية :

قال تعالي :

«سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ» (الصافات ١٣٠) والمقصود إلياس.

«وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا» (النبأ ٢٨) والمقصود تكذيبا .

«وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا» (نوح ٢٢) والمقصود كبيرا.

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ» (آل عمران ٩٦) والمقصود مكة .

«إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» (ص ٥) والمقصود عجيب.

* الرتبة :

قال تعالي :

«وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ» (هود ٣٨).

أي سخروا منه وهو يصنع .

«وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ» (هود ٤٢) .

أي ناداه وهي تجري .

* التضام :

يشمل مفهوم التضام ثلاثة أشياء هي : الافتقار والاختصاص والتوارد .

ومعني ذلك أن الترخص في الافتقار يتحقق في صورة الحذف وفي الاختصاص بإهماله وفي التوارد بالمفارقة المعجمية بين ألفاظ السياق .

فمن الحذف قوله تعالي : «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » (الحاقة ١ - ٢).

فقوله تعالي «وما أدراك ما الحاقة» جملة تعجبية تفسر ما قبلها من قوله «ما الحاقة» الذي حذف منه أفعل التعجب كما حدف من حديث أم زرع

الذي يقول «زوجي أبو زرع وما أبو زرع» . ويبرر فهم التعجب في الآيات السابقة أن النبي عليه الصلاة والسلام تلقي في الوحي الكثير من أخبار الساعة ومن أشراطها مما يؤهله لأن يكون علمه بذلك موضع تعجب . أمّا فهم الاستفهام من هذه الآية فيحول دونه أن اللّه أعلم بالحاقة من نبيه ، فكيف يسأله ؟

ومن الحذف أيضاً قوله جل شأنه . «ولا علي الذين إذا ما أوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدو ما ينفقون . ففي هذه الآية موضعان يصلح كل منهما لتقدير فاء العطف مع عدم تقديرها في الآخر . وذلك علي النحو التالي

إذ ما أتوك ... فقلت ... تولوا .

و إذا ما أتوك ... قلت ... فتولوا .

ومن الزيادة قوله عز من قائل : «فلمّا أسلما وتله للجَبين ونَاديْناه أن يا إبرَاهيمَ قد صدّقْتَ الرُّءيا» (الصافات١٠٣- ١٠٥) . فهنا واوان إحداهما زائدة، و لتقدير كما يلي :

فلما أسلما تله للجبين وناديناه .

أو فلما أسلما وتله للجبين ناديناه .

ومنه أيضاً «حتَى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمرِ وعصيتم » (آل عمران ١٥٢) فالتقدير كما يلي :

حتي إذا فشلتم تنازعتم وعصيتم .

أو حتي إذا فشلتم وتنازعتم عصيتم .

أما الترخص في الاختصاص فيشهد له قوله جل شأنه : «وَيْلٌ لكُلِّ هُمزة لُمَزة الّذي جمع مالاً وعدّده» (الهمزة ١ - ٢) من أحكام الاختصاص أن توصف النكرة بالنكرة، ولكن قد يترخص فذ هذا الاختصاص فتوصف النكرة بالمعرفة . والذي برر ذلك الترخص (أو الاتساع كما يقال أحيانا) أن

النكرة (همزة) وصفت بنكرة أخري (لمزة) فقربها ذلك من المعرفة . ونظائر ذلك النص القرآني كثيرة ذكرتها في كتاب البيان في روائع القرآن .

ومن الترخص في التوارد قوله تعالي : «وَطُورِ سِينِينَ» (التين ٢) (أي سيناء) وكذلك «سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ»(الصافات ١٢٩) (أي علي إلياس) .

٤ - الربط :

المقصود بالترخص في الربط عدم ذكر المرجع لدلالة السياق عليه ، كما في قوله تعالي : «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ» (النحل ٦١). ومن ذلك أيضاً قوله جل شأنه : «فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه (أي القرآن) لقول رسول كريم (أي جبريل) وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا (أي محمد صلي اللّه عليه وسلم) بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين وإنه (أي القرآن) لتذكرة للمتقين وإنا لنعلم أن منكم مكذبين وإنه (أي القرآن) لحسرة علي الكافرين وإنه (أي القرآن) لحق اليقين «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» (الحاقة ٥٢) .

٥ - المشترك اللفظي :

لباس :

لهذا اللفظ معنيان : أحدهما ما يلبس علي الجسم لستر العورة واتقاء الظواهر الجوية الضارة ، والثاني مصدر الفعل (لابس يلابس لباسا وملابسه) أي خالط يخالط . ومن شواهد المعني الثاني قوله تعالي : «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ» (الأعراف ٢٦). فالمقصود بلباس التقوي ملابساتها .

يعد لون :

ولهذا اللفظ معنيان : أحدهما (يتخذون عديلا) والآخر يقيمون العدل . يشهد لذلك ما يلي :

«ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» (الأنعام ١).

«وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ»(الأعراف ١٥٩).

أعرض :

والأمر كذلك هنا . فقد ورد هذا اللفظ مرتين في آية واحدة علي سبيل المشاكلة ، وذلك في قوله تعالي : «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ (أي لا تعاقبوهم) فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ (أي أهملوهم) إِنَّهُمْ رِجْسٌ»(التوبة ٩٥) .

الأوسط :

المعنيان هما : الواقع بين شيئين والأفضل ، وأفضلهما . وفيما يلي شواهد تؤيد ذلك هي قوله تعالي :

«فوسطن به جمعا» (العاديات ٥) أي اتخذن مكانا وسطا بين أفراد هذا الجمع .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » (البقرة ٢٣٨) أي المتقنة.

« قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون » (القلم ٢٨) أي أفضلهم .

«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» (البقرة ١٤٣) أي فضلي .

الظواهر المعنوية

١ - لازم المعني :

أطلق البلاغيون علي ظاهرة لزوم المعني مصطلح «الكناية» .

ومن الكناية قوله تعالي : «وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ» (الفرقان ٧) إذ يلزم من أكل الطعام (ولا اعتراض عليه) أمر آخر هو إفراز نتائج الهضم (وهو أمر لايحسن الكلام الصريح فيه) . ثم إنه يلزم من المشي في الأسواق الاشتغال بالبيع والشراء ، مع ما يقوم به البائع والشاري من المساومات التي تحفل بصنوف الكذب والخداع والمبالغة في

تحسين السلعة وفي تحديد الثمن زيادة أو نقصا ، دون الرجوع إلي التحلي بالخلق الفاضل والصدق في الكلام . وهكذا عمل النص القرآني في آية لاحقة إلي إهمال مبدأ اللزوم والعودة إلي المعني الأصلي ، وذلك في قوله تعالي : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ».(الفرقان ٢٠).

٢ - مفهوم المخالفة :

هذا المفهوم يعد مهربا لمن يريد أن يقول شيئا فيتوسل إلي ذلك بقول ما يناقضه هربا من إفساد المواقف أو خوفاً من عواقب الصراحة . من ذلك ما قاله قوم صالح لنبيهم : «يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا » (هود ٦٢) أي إننا نأسف لأننا لم نعد نرجو فيك خيرا . والمقصود بهذا أنهم رأوا في تذكير صالح بما كان له من احترام في نفوسهم ما يخفف من وقع نفي احترامهم له الآن .

ومن ذلك أيضا قوله جل وعلا : «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» (يوسف ٢٢) . فمفهوم المخالفة هنا أن الله سبحانه لم يؤت يوسف قبل البلوغ حكما ولا علما .

ومنه كذلك قوله سبحانه : «قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» (سبأ ٤٧) والمعني : أنا في غني عن استرضائكم والإستعانة بكم فإذا كنتم قد عزمتم علي منحي شيئاً من عطاياكم في نظير سكوتي عن إبلاغ الرسالة فأنا في غني عنه فاحتفظوا به لأنفسكم .

٣ - ظل المعني :

إن مفهوم المخالفة يعد ظلا من ظلال المعني . وهذه الظلال متعددة الأنواع ، ومنها ما يلي :

السؤال الوارد : قد يسمع المرء كلاما فيري أن معناه يصطدم بمعلومة سابقة تخالف ما سمعه فيدور بخلده عندئذ سؤال يعينه علي تفسير هذا التضارب بين المسموع والمعهود . وهنا تأتي إجابة هذا السؤال لتضع

الأمر في نصابه .

انظر مثلا إلي قوله تعالي بعد عزم النبي علي الاستغفار لعمه أبي طالب : «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» (التوبة ١١٣) هنا أصبح السؤال التالي وارداً علي الذهن : (لما إذن استغفر إبراهيم لأبيه؟) وهنا جاء الرد بما يلي «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه».

فظل المعني في هذا المقام هو السؤال الوارد الذي كتمه السامع في نفسه وأجاب عليه الله سبحانه وتعالي .

ومن ذلك أيضاً أن الله سبحانه وتعالي يقول عن الثقلين (الإنس والجن) في يوم الحشر : «فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ» (الرحمن ٣٩) فيترتب علي ذلك سؤال هو : (كيف ذلك واليوم يوم الحساب؟) عندئذ يأتي الجواب بقوله تعالي : «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ» (الرحمن ٤١) . أي أن سيماهم أغنت عن مساءلتهم «وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» (القصص ٧٨) .

٤ – **دلالة اللفظ المختار :**

كان من المقبول في حالة مراودة يوسف عن نفسه أن تنحط قيمة إمرأة العزيز في سياق النص القرآني لما أقدمت عليه من مراودة فتاها وخيانة زوجها . ومن هنا نجد الإشارة إلي هذه المرأة تأتي علي الصورة التالية : «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» (يوسف ٢٣) . والذي يوحي به هذا التعبير أن العلاقة بينه وبينها هي مجرد إقامته في بيتها ، فهي ليست سيدته وليست خارج حياته لأنه من غلمان هذا البيت. ثم إنها لم تكلفه أمراً مشروعا وإنما دعته إلي مشاركتها في خيانة زوجها . وهو أمر رفضه يوسف بقوله : «إنه ربي أحسن مثواي إنه لايفلح الظالمون». ولما حاول يوسف الهرب منه جري في اتجاه الباب ، «وَأَلْفَيَا

سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ»(يوسف ٢٥) ، لم يقل النص هنا (وألفيا زوجها) ، وإنما أراد أن يضع من شأنها فاختار اللفظ المناسب لإهدار الشعور بقيمة الحياة الزوجية.

٥ - دلالة الاستفهام الإنكاري :

إذا بديء الاستفهام الإنكاري بحرف النفي فإن ظل المعني هو الإثبات أو الأمر ، كما في قوله تعالي : «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ »(الضحي ٦) (أي لقد وجدك يتيما) ، وقوله جل شأنه : «أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ» (التوبة ١٣) (أي قاتلوهم).

أما إذا لم يبدأ الاستفهام الإنكاري بحرف النفي فإن ظل المعني هو النفي أو النهي . قال تعالي : «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا » (الحجرات ١٢) (أي لايحب أحدكم ذلك) ، أو يأتي ظل المعني في صورة النهي كما في قوله تعالي : « أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (يونس ٩٩) (أي لاتكره الناس علي الإيمان).

وقد يستفاد النفي من لفظ معجمي مثبت كالاسم أو الفعل فيؤدي إثبات اللفظ نحويا (علي رغم دلالته المعجمية) إلي أن يأتي ظل المعني في صورة النفي كما في قوله تعالي : «ويَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ» (التوبة ٣٢) (أي لايقبل إلا أن يتم نوره) والمعني علي الحصر .

٦ - دلالة الفعل علي نوع المفعول به :

من ذلك قوله تعالي : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ * وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي* حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ * وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا * ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ » (القصص ٢٣ - ٢٤) ، أضيفت العلامة(*) في مواقع المفعول به وحذف المفعول لدلالة الفعل عليه فالسقيا والذود والإصدار لاتكون إلا لقطعان الماشية .

٧ – إشراب المعني الأصلي معني آخر :

من ذلك إشراب الموصول معني الشرط . فقد يستعمل الإخبار بالموضوع علي علاته دون إشراب للمعني ، كما في قوله تعالي : «الَّذين يُنفقُون أموالَهم في سبيل اللّه ثُمَّ لا يُتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لَهُمْ أجْرُهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنُون» (البقرة ٢٦٢) . نزلت هذه الآية في مناسبة خاصة بمساهمة عثمان بن عفان في نفقات جيش العسرة ، فلم يكن هناك مجال لإشراب الموصول معني الشرط لأن الشرط عام وعثمان (رضي الله عنه) فرد ومن هنا لم يقترن الخبر بالفاء علي نحو ما يكون في جواب الشرط .

أما حين يكون نص الآية دعوة عامة إلي الإنفاق فمن أنفق فله أجره ولا خوف عليه ومن بخل بالإنفاق فقد ارتكب ذنبا فذلك في أصله معني الشرط . من هنا كان نص الآية الداعية إلي ذلك كما يلي : «الَّذين يُنفقُون أموالَهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هـ يحزنون»(البقرة ٢٧٤).

٨ – المجاز :

ينص تعريف المجاز علي أنه : «نقل اللفظ من معناه الأصلي إلي معني آخر لعلاقة بينهما مع قرينة مانعة عن إرادة المعني الأصلي » فالمعني الأصلي هو المعني المعجمي والمعني الآخر هو المقصود بالكلام ، والعلاقة هي المشابهة والقرينة هي المفارقة المعجمية بين المعني الأصلي ومقصود الكلام . فإذا قرأنا قوله تعالي : «يد اللّه فوق أيديهم فليس للّه يد ، وإنما المقصود هنا هو رضي اللّه عن ما اتخذوه من قرار متفق عليه . وإذا قرأنا : «ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام فليس في ذلك إدعاء أن اللّه وجها كوجوهنا ، وإنما المقصود هو الاتجاه إلي اللّه بالطاعة والعمل الصالح .

السبع المثانى

قال اللّه تعالي «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم» (الحجر ٨٧) . وقال جل شأنه : «اللّه نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلي ذكر اللّه» (الزمر ٢٣) . تباينت أقوال المفسرين في المقصود بالسبع المثاني ، فقال القرطبي : إن ابا هريرة يروي حديثا عن النبي صلي اللّه عليه وسلم يقول فيه : «الحمد للّه أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» (يقصد بقوله «الحمد للّه » فاتحة الكتاب كما يري النسفي بعد قليل).

ويروي القرطبي أيضا قول ابن عباس عن السبع المثاني : هي السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة معا ، لأنه ليس بينهما تسمية (أي بسملة) . وأنكر قوم هذا واعترضوا بالآية المذكورة في أول الكلام ، لأنها أنزلت بمكة ولم ينزل من الطوال شيء إذ ذاك . وقال آخرون إن المثاني في القرآن كله ، لقوله تعالي في سورة الزمر : «كتابا متشابها مثاني»وقيل له (أي للقرآن) مثاني لان الأنباء والقصص ثنيت فيه . وقيل إن المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نعم وأنباء قرون . ثم يقول القرطبي : «وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثاني ما يمنع من تسمية غيرها بذلك . إلا أنه إذا ورد عن النبي صلي اللّه عليه وسلم وثبت عنه في شيء لايحتمل التأويل كان الوقوف عنده» . ولم يأت في تفسير آية الزمر بما يعارض ما قاله القرطبي هنا .

ويري النسفي في معني لفظ «مثاني» أنه جمع مثني بمعني مردد ومكرر إشارة لما ثني من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه . ويري أن المقصود في سورة الحجر فاتحة الكتاب . وأن اللفظ مأخوذ من التثنية وهي التكرار : لأن الفاتحة مما يتكرر في الصلاة . أو مأخوذ من الثناء لاشتمال سورة الفاتحة علي ما هو ثناء علي اللّه .

أما أبو حيان فيقول في البحر المحيط . «المثاني مثناة ، والمثني من كل شيء يثني أي يجعل أثنين من قولك ثنيت الشيء ثنيا أي عطفته وضممت إليه آخر . ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيه «مثاني» لأنه يثني بالفخذ والعضد . ومثاني الوادي معاطفه ، فتقول سبعا من المثاني مفهوم سبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثني وهذا مجمل ولاسبيل إلي تعيينه إلا بدليل منفصل».

نخرج من هذا الخلاف في الرأي بعدد من المعاني المقترحة للفظ المثاني علي النحو التالي :

١ - المعني الأول يشرح المقصود بالمثاني في ضوء العدد المذكور في الحديث الشريف ، فيجعل السبع المثاني فاتحة الكتاب التي تشتمل علي سبع أيات أولها البسملة ، ويسكت عما عطف علي السبع وهو القرآن العظيم .

٢ - التفسير الثاني يجمع بين مفهومي العدد والمعدود ويقرر أن المقصود هو السور السبع الطوال ، وعندما يلاحظ أن السورة السابعة وهي (الأنفال) لاتعد بين السور الطوال ضم إليها التوبة لأنها لم تتقدمها البسملة ، وعدهما معا سورة واحدة جعلها السابعة .

٣ - التفسير الثالث يجعل المقصود هو القرآن كله أخذا بقوله تعالي «كتابا متشابهاً مثاني» ويسكت عن دلالة العدد «سبعا» .

٤ - ورابع التفاسير يتناول ما يسميه «أقسام القرآن» ، يقصد أغراض النص القرآني من أمر ونهي وتبشير وإنذار وأمثال الخ ، وبذلك يشير إلي القرآن كله دون إشارة إلي العدد (سبعة) .

٥ - ويري صاحب التفسير الخامس أن «المثاني» مأخوذة من التثنية وهي التكرار ، وأن الفاتحة تتصل بالتكرار من جهتين : أنها قراءتها في الصلوات وأنها تشتمل علي تكرار ما يفيد الثناء علي الله .

٦ - أما التفسير السادس فيري أن «المثاني» جمع مثناة ، والمثني من كل شيء يثني أي جعل أثنين من قولك تثنيت الشيء ثنيا أي عطفته وضممت إليه آخر . فالسبع المثاني معناها سبعة أشياء من جنس ما يثني .

ومن مأثور القول بين مفسري القرآن الكريم أن «القرآن يفسر بعضه بعضا» فإذا اراد المرء أن يفهم مقاصد القرآن فعليه أن ينظر إلي التناص بين نصوصه لأن ما يقوم من علاقة بين هذه النصوص من شأنه أن يكشف بواسطة ما بها عن اتفاق عن مقاصد النص الحاضر في ضوء النص الآخر». ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا» (النساء ٨٢) . وإذا رجعنا إلي ما تقدم من إشارة إلي أيتي الحجر ٨٧ والزمر ٢٣ وجدنا القرآن مذكورا في كلتيهما إما بالاسم (القرآن العظيم) وإما بالوصف (كتابا متشابها) ، وأن العدد (سبعا من المثاني) ذكر في أية الحجر دون أية الزمر . أما الوصف بالمثاني فقد ورد في كلتا الأيتين .

دعنا إذن نستعن بمبدأ التناص في فهم المقصود بالمثاني وهي كما قال النسفي جمع مثني . يقول الله سبحانه وتعالي : «فانحكوا ما طاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع» (النساء ٣) ، أي فليتخذ كل منكم امرأتين يكون نكاحهما علي طريقة «المثاني» أي كونهما (أثنتين أثنتين) . فإذا وظفنا فكرة المثنوية هذه في محاولة فهمنا للنص الذي بين أيدينا كان من المطلوب أن ننظر إلي كيفية وجودها في النص القرآني . دعنا أولا نبحث عن معني المثاني منسوباً إلي القرآن في مجمله ثم ننظر إليه بعد ذلك في السبع المثاني بخصوصها .

ينبغي لهذه المثاني في القرآن كله أن تكون أزواجاً من المفاهيم بين عنصري كل زوج منها صلة خاصة إيجابية أو سلبية . ويمكن أن نضرب مثلا لهذه الأزواج من المفاهيم علي النحو التالي :

الإنس والجن	السماء والأرض	الجنة والنار
الإيمان والكفر	الطاعة والمعصية	الخير والشر

الصدق والكذب	الإخلاص والنفاق	الوفاء والغدر
النور والظلام	الحياة والموت	الدنيا والآخرة
أصحاب اليمين وأصحاب الشمال	الشكر والجحود	السلم والحرب
البيع والشراء	القول والفعل	الله والعباد
الألوهية والربوبية		

وهلم جرا مما يخضع لتعليم القرآن وللبشارة والإنذار بما يكون في الحياة الدنيا والآخرة من قول أو عمل ، مثل :

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ » (الأنعام ١٢٨) .

«تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ» (الإسراء ٤٤) .

«إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ» (المدثر ٣٨-٤٠).

«وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ» (آل عمران ١٤٥).

«فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» (الكهف ٢٩) .

«فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيراً» (الفرقان ٥٢).

«« قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى» (البقرة ٢٦٣).

« قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» (النمل ٢٧) .

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ» (الحديد ١٣) .

«كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما» (التحريم ١٠) .

«فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ» (البقرة ١٧) .

«كذلك يُحيي اللَّهُ الْموْتَىٰ ويُرِيكُمْ آياته لَعَلَّكُمْ تعقلون» (البقرة ٧٣).

«من كانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فعند اللَّه ثَوابُ الدُّنْيا والآخرة» (النساء ١٣٤).

« فأصْحَابُ المَيمنة مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَة وأَصْحَابُ المشْأمة مَا أصحاب المَشْأَمَة» (الواقعة ٨ - ٩).

« فاذْكُرُوني أذكرْكُمْ واشْكُرُوا لِي ولا تكْفُرُونِ» (البقرة ١٥٢).

«فإن لَّمْ يعتزلُوكُمْ ويُلْقُوا إليْكُمُ السَّلَم ويَكُفُّوا أيْديَهُمْ فَخُذُوهم» (النساء ٩١).

«وأحَلَّ اللَّهُ الْبَيْع وحَرَّم الرِّبا» (البقرة ٢٧٥).

«لِم تقولُونَ مَا لا تفْعلُون» (الصف ٢).

«ومَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنس إلاَّ لِيعْبُدُون» (الذاريات ٥٦).

وما كل ذلك إلا نماذج من المثاني وأمثلة من الشواهد القرآنية توخينا فيها أن تكون قصيرة قدر الإمكان تجنبا للإطالة. وهذا الذي مضي شرح لما يفهمه المرء من معني وجود المثاني في القرآن العظيم كله وهو الكتاب المتشابه المشتمل علي هذه المثاني.

دعنا ننظر الآن في المقصود بالسبع المثاني التي اختصت بها سورة الفاتحة، وليكن الحديث الذي رواه القرطبي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم بقوله: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» موضع القبول لقوله تعالي: «وما آتاكُمُ الرَّسولُ فخُذوهُ وما نَهاكُمْ عنْهُ فانتَهوا» (الحشر ٧)، مع العلم بأن عبارة «الحمد لله» هي أول الفاتحة بعد البسملة. ومن ثم تكون هي أول فاتحة الكتاب. فما المثاني التي اشتملت عليها الفاتحة؟ وكيف تحققت المثنوية بين ما تشير إليه من مقاصد؟ قال قوم إن الفاتحة سبع آيات أولها البسملة، أي أن السبع المثاني هي الآيات السبع في سورة الفاتحة، وأن البسملة هي إحدي هذه المثاني وعندما نقرأ هذا الكلام نتساءل عن السبب الذي جعل البسملة في

رأيه إحدي المثاني في الفاتحة فعدها من آياتها ولم يجعلها كذلك في بقية سور القرآن الكريم . ويكاد هذا التساؤل يحملنا علي رفض أن تكون سورة الفاتحة مشتملة علي السبع المثاني حتي نتذكر الحديث الشريف الذي دعانا منذ قليل إلي قبول كونها هي المقصودة . عندئذ نبدأ التماس طريق آخر نصل من خلاله إلي ما في سورة الفاتحة من المثاني ، ثم ما الذي يرشح هذه العناصر من سورة الفاتحة لقبول كونها من المثاني ، وكيف يتحقق فيها العدد سبعة بعد الشك في أن البسملة ليست من آيات الفاتحة .

١ – لفظ الجلالة :

إن أول ما نصادفه عند قراءة الفاتحة هو «الحمد للّه» ، ولفظ الجلالة من بين الأسماء الحسني هو الوحيد المرتجل أي الذي لم ينقل إلي العلمية بعد أن كان مصدراً أو صفة كغيره من الأسماء الحسني . فهو اسم اللّه الأعظم الذي يدل علي الألوهية كما في «اللَّهُ لا إله إلاَّ هُوَ» (البقرة ٢٥٥) ، كما يدل في الوقت ذاته علي الربوبية كما في «ذلكُمُ اللَّهُ ربُّكُمْ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» (الأنعام ١٠٢) . وإذا كان لفظ الجلالة بكونه الاسم الأعظم دالا علي الألوهية والربوبية في وقت معا فلابد من أن ينطوي علي مثنوية في معناه وإن كان مفرداً في لفظه . وهذا الإفراد في اللفظ يجعله واحداً فقط من ألفاظ المثنويات السبع . كما أن دلالة لفظ الجلالة علي الألوهية والربوبية في وقت معا يتجلي في صحة وصفه في البسملة بلفظي «الرحمن» و «الرحيم» مع إختلاف معني كل منهما عن معني الآخر من حيث الدلالة علي هذين المفهومين (الألوهية والربوبية) كما سنري بعد قليل إن شاء اللّه . والدليل علي أن لفظ الجلالة يدل علي هذين المعنيين (الأولوهية والربوبية) قوله تعالي: «وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخذُوا إلَهيْنِ اثْنَيْنِ إنَّمَا هُوَ إلَهٌ واحدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونَ وَلَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّه تَتَّقُونَ وما بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّه ثُمَّ إذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإلَيْه تَجْأَرُونَ» (النحل ٥١ – ٥٣) . فاللّه سبحانه في أول الآية إله واحد مستحق للعبادة وفي آخرها رب منعم ومستعان . وإسمه واحد لم يتغير في الحالتين .

وعلينا بعد ذلك أن نلقي مزيداً من الضوء علي الاسم . قلنا قبل ذلك إن أول ما نصادفه من سورة الفاتحة هو «الحمد لله» ، فما المقصود بالحمد وما الفرق بينه وبين الشكر ؟ المعروف أن اللغة العربية ربما أعادت ترتيب أصول إحدي الكلمات وابقت علي المعني دون تغيير ، وهذا ما يسميه ابن جني في الخصائص «الاشتقاق الأكبر ». وفي رأيي أن الحمد والمدح من قبيل هذا الاشتقاق . ووجه إنتمائهما إلي أصل واحد أن الحمد كالمدح مبعثة الاحترام دون أن يكون لدي المادح إحساس بما سوي استحقاق الممدوح ، وكذلك استحقاق المحمود للحمد ، ويمكن أن يقال مثل ذلك في لفظي «الرب» و «البر» بفتح الباء . أما الشكر فعرفان بالفضل واعتراف بالنعمة . ولذلك يصح أن يقال : «اللهم لك الحمد بما تعاليت ولك الشكر بما أوليت» نحمدك بجميع محامدك ما علمنا منها وما لم نعلم ونشكرك بجميع نعمك ما علمنا منها وما لم نعلم وإذا كان رب الجلال كما سبق أن ذكرنا مستحقا للحمد بما تعالي وللشكر بما أنعم فإن لفظ الجلالة من شأنه أن يقبل الأمرين معا . فإذا قال العبد ياالله فقد نادي المستحق للحمد وللشكر معا . وهو الذي يعاقب المذنب ويثيب المحسن: «قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً» (الأحزاب ١٧) . هذه أولي المثاني السبع ، ويمكن بيانها كما يلي :

الله	
إله معبود	رب مستعان

ولكل من الألوهية والربيوبية بعد ذلك ثلاث مثان ، وكل ذلك عما اشتملت عليه فاتحة الكتاب . وبيان ذلك كما يلي :

مثاني الألوهية	مثاني الربوبية
مالك يوم الدين	رب العالمين
الرحمن	الرحيم
إياك نعبد	إياك نستعين

وفيما يلي بيان بالأسس التي دعت إلي هذا الفهم وذلك من جهتين :

اختيار نص فاتحة الكتاب بالذات .

بيان سبب اختيار المثاني الست التي تبلغ سبعا بإضافة لفظ الجلالة .

٢ – مالك يوم الدين :

هذه المثناة تقف في مجال الألوهية بإزاء مثناة «رب العالمين» التي تنتمي إلي الربوبية ، وذلك لما بينهما من اختلاف المواقف بين الدنيا والآخرة، ومن اختلاف الوظيفة بين مالك أو ملك وبين رعاية رب أو عون مستعان . فمالك يوم الدين صفة إلهية ، لأنها تشير إلي معني العبادة التي تأتي مثوبتها يوم الدين ، ولأنها تتصل بما في ذلك اليوم من أيام الآخرة من ثواب أو عقاب . وهناك قراءة أخري يتحول بها لفظ «مالك» إلي ملك» «لهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحمْدُ وهُو علىٰ كُلِّ شيْءٍ قديرٌ » (التغابن –١) ، وهو المهيمن الذي يدخل عباده الجنة إن شاء والنار إن أراد . ولا يمكن أن تكون هناك شفاعة في هذا الموقف إلا بإذن الله . ثم إنه في هذا اليوم «إذَا وقعت الْواقعةُ ليْس لوقْعتِها كاذبةٌ خافضةٌ رَّافعةٌ إذَا رُجَّت الأَرْضُ رَجًا وبُسَّت الْجبالُ بسًا فكانتْ هباءً

مُنْبَثًّا وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » (الواقعة ١ – ١٢) . كل ذلك بإرادة مالك يوم الدين ، يوم يحشر الله إليه وفداً ويسوق المجرمين إلي جهنم وردا .

٣ – رب العالمين :

وفي مقابل مثناة «مالك يوم الدين» تقف مثناة «رب العالمين» . والرب هو الراعي وهو المستعان كما سنري فيما بعد . وفي الحديث الشريف «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته». والراعي يمنح الرعاية للرعية كما يمنح الرب الولاية والكفالة . وقد قال يوسف عليه السلام حين دعي إلي خيانة العزيز في أهله : «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» (يوسف ٢٣) ، فجعل العزيز ربه أي كافله الذي رباه وأحسن رعايته منذ طفولته وإلي شرخ شبابه. وفي إطار هذا الفهم قال يوسف أيضاً لأحد الفتيين عند خروج الفتي من السجن: « أذكرني عند ربك» (يوسف٢٤) وفي سورة آل عمران نجد «أولي الألباب» يدعون ربهم بذكر لفظ الرب فيقولون (آل عمران ١٩١ – ١٩٤) :

«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (١٩١) .

«رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ»(١٩٢).

«رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّاا »(١٩٣).

«رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ» (١٩٣).

« رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١٩٤) .

وقد استعمل أولو الألباب هنا لفظ «ربنا» وكان يمكنهم أن يقولوا «اللهم» في كل موضع ذكر فيه الرب في هذه الآيات (لأن لفظ الجلالة كما قلنا من قبل صالح للدلالة علي المعنيين في وقت معا) . ويتضح من ذلك أن الربوبية صفة المستعان كما كانت الألوهية صفة المعبود.

٤ - الرحمن :

في لفظ «الرحمن» دلالة علي الألوهية كما يؤخذ من مبدأ «القرآن يفسر بعضه بعضا » وهو المبدأ الذي سمي في الدراسات الحديثة «التناص» . ومع أن مفسري القرآن الكريم هم الذين صاغوا هذا المبدأ في صورته التراثية لم يحسنوا استعماله في فهم لفظ «الرحمن » حتي في بعض التفاسير التي أعلنت عن نفسها أنها تفسر القرآن بالقرآن ، مثل تفسير «أضواء البيان» للشنقيطي .

رأي بعض المفسرين أن «الرحمن» يتفق في المعني مع «الرحيم» علي نحو ما يتفق لفظاً «ندمان» و «نديم» . وفوق آخرون بينهما في المعني إذ رأوا في «الرحمن » مبالغة ليست في «الرحيم» ، أو أن الرحمن يرحم الخلق جميعاً علي حين يرحم الرحيم المؤمنين دون غيرهم . واكتفي البعض بملاحظة أن «الرحمن» يسمي به اللّه وأن «الرحيم» يوصف به غير اللّه أيضا .

أما ما نراه وجيها في تحديد معني «الرحمن» فيؤخذ من قوله تعالي : «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» (الزخرف ٤٥) . وإن أصدق ما يحدد معناه آية الكرسي التي تقول : «اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » (البقرة ٢٥٥) ومن تحريف معني «الرحمن » أن مسيلمة الكذاب كان يسمي نفسه (رحمن اليمامة) أي أنه جعل نفسه قيوما علي الإقليم المذكور .

وإذا نظرنا إلي الآيات القرآنية الكريمة التي يرد فيها لفظ «الرحمن» فإننا سنجد سياق النص وسياق الموقف كليهما يؤديان إلي أن للرحمن دلالة علي الألوهية تضعه بإزاء لفظ الرحيم ودلالته علي الربوبية . وإلي القاريء الكريم جملة هذه الآيات كما ترد مفرقة في سور القرآن الكريم : « قُلِ ادْعُوا

اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً » (الإسراء ١١٠) . الرحمن تجب عبادته مثله كمثل دلالة لفظ الجلاله (الله) .

١ - « قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا» (مريم ١٨) . لم تستعذ بالرحيم .

٢ - « يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا » (مريم ٤٤) الطاعة واجبة للرحمن .

٣ - « إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ» (مريم ٤٥) . الرحمن يعذب من عصاه وإن اشتق اسمه من الأصول الثلاثة للرحمة .

٤ - «قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا» (مريم ٧٥) . الرحمن يمهل الضالين قبل تعذيبهم .

٥ - «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا». (مريم ٨٥) . يحشر المتقون إلي الرحمن .

٦ - «لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» (مريم ٨٧).

٧ - « وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا» (مريم٩٢) . تعالي الله عن ذلك .

٨ - « إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا» (مريم ٩٣) .

للرحمن عباد خاضعون له ، ولاينسب العباد إلي غير الرحمن (فيما عدا ما عبّد من أسماء الأعلام).

٩ - «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » (مريم ٩٦) . الرحمن يملك الثواب والعقاب .

١٠ - «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» (طه ٥) . للرحمن عرش وله هيمنة.

١١ - «وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا» (طه ١٠٨).

١٢ - « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا» (طه ١٠٩).

١٣ - «قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن» (الأنبياء ٤٢) . لايمكن لأحد أن يكلأ أحدا من بأس الرحمن .

١٤ - «الملك يومئذ الحق للرحمن » (الفرقان ٢٦) . في الفاتحة : «مالك يوم الدين» ومنذ قليل جاء ذكر عرشه .

١٥ - «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا» (الفرقان ٦٣) انظر رقم ٨ .

١٦ - «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب » (يس ١١). الرحمن يخشى غضبه .

١٧ - «إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا » (يس ٢٣) انظر ١٣ .

١٨ - «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» (الزخرف ١٦) انظر ٧ .

١٩ - «وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم» (الزخرف ٢٠) .

٢٠ - « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» (الملك ٣) .

٢١ - « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن» (الملك ١٩).

٢٢ - «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا» (النبأ ٣٨).

ومع ذلك قد يأتي «الرحمن» خبرا عن لفظ «رب» في موقف يتطلب ذلك، وقد يرد صفة للرب مع وجود خبر مناسب للربوبية . فمن الأول ماقاله هارون لبني إسرائيل عندما عبدوا العجل من دون الله : «يا قوم إنما فتنتم به

وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي» (طه ٩٠) أي إن ربكم إله قيوم يهيمن علي الخلق كله ، فكيف تعبدون من دونه عجلا؟ ومن الثاني قوله تعالي: «وربنا الرَّحمنُ المُسْتَعانُ عَلَىٰ ما تَصِفُونَ» (الأنبياء ١١٢) . أي وربنا المهيمن المعبود هو المستعان علي ماتقولون . فوصف المبتدأ بأنه «الرحمن» أشار إلي نوع الاستعانة التي ذكرت في الخبر ، أي أن الخبر مناسب للمبتدأ وموصوف بما يجعل الاستعانة به موضع ثقة ، ولاسيما بعد قوله تعالي : «قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ....» (الأنبياء ١٠٨ - ١١٢) . فلوصف المبتدأ بلفظ «الرحمن» ما يبرره . وقد يرد «الرحمن» في موضع يصلح لكل من الاسمين لأن السياق يجعله كذلك ، كما في قوله تعالي : «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا» (الملك ٢٩) ، فالإيمان بالإله والتوكل علي الرب .

٥ - الرحيم :

والرحيم من مثاني الربوبية كما تشهد آيات القرآن أيضا . فإذا كانت الربوبية رعاية للعباد وإنعاما عليهم ورأفة بهم وعطاء يستحق الشكر كما استحق الرحمن الحمد فإن هذا الاسم من أسماء اللّه سبحانه يأتي مقترنا بما يحدد له هذه الظلال المذكورة من معاني الربوبية : وهي الرعاية والإنعام والرأفة ... إلخ . فالرحيم تواب ورءوف وغفور وودود ومستعان وبر وعزيز الخ كما تشهد الآيات التالية :

١ - «فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم» (البقرة ٣٧) .

٢ - «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (البقرة ١٤٣) .

٣ - «فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (البقرة ١٩٢) .

٤ - «واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود» (هود ٩٠).

٥ - «سلام قولاً من رب رحيم» (يس ٥٨) .

٦ - « إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم» (الطور ٢٨) .

٧ - «وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (الشعراء ٩) .

بما تقدم يتضح أن لفظي «الرحمن» و «الرحيم» يختلفان في المعني وإن كانا فرعين في دلالتهما علي لفظ الجلالة ، فقولنا : بسم الله الرحمن الرحيم في قوة قولنا : بسم الله الإله الرب ، أي بسم الله المعبود المستعان (أخذنا من قوله : «إياك نعبد وإياك نستعين » . وهكذا يبقي من المثاني السبع اثنتان إحداهما يخاطب بها الإله ، وهي «إياك نعبد» والأخري يخاطب بها الرب ، وهي «إياك نستعين » . وعلي أي حال : «الدعاء مخ العبادة»، كما يروي عن النبي صلي الله عليه وسلم .

٦ - إياك نعبد :

يقول الله تعالي لموسي عليه السلام : «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري» (طه ١٤) . وهذا الأمر بالعبادة تقدمه ذكر الألوهية لتكون مقدمة لطلب العبادة كما يستفاد من الفاء في «فاعبدني » ؛ أي لأنه «لا إله إلا أنا» . وإنما كان القول بأن العبادة إنما تتحقق بإقامة الصلاة لذكر الله سبحانه وتعالي لأن الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي لا رخصة بتركها . أما الزكاة والحج والصوم ففيها رخصة لمن لا يستطيع . وإذا نظرنا إلي قوله سبحانه : «إياك نعبد» وجدنا تقديم المفعول «إياك» مفيداً للدلالة علي معني : (لامعبود إلا أنت) . فالعبادة مقصورة علي الله جل جلاله .

٧ - إياك نستعين :

ويقابل العبادة ودلالتها علي معني الألوهية أن الاستعانة تدل علي أن المستعان رب ينعم علي عباده . فما أكثر ما يبدأ الدعاء بنداء الرب كما رأينا عند الكلام عن مثناة «رب العالمين» . وقد يبدأ الدعاء بعبارة «اللهم»

لأن لفظ الجلالة كما سبق أن ذكرنا يتضمن مفهومي الألوهية والربوبية في وقت معا . وواضح أن الدعاء استعانة باللّه رب العالين ، وأن الذي يقرأ الفاتحة في الصلاة إنما يدعو ربه أثناء العبادة ، ولاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب . أما موضوع الاستعانة المطلوبة في قراءة الفاتحة فيبدو في قوله تعالي بعد ما سبق : «اهدنا الصراط المستقيم ... ألخ » . ولقد سبقت الإشارة إلي الفرق بين الحمد والشكر ، ونود أن نشير إلي فرق مشابه لذلك بين الجلال والإكرام . فينسب الحمد والجلال إلي الإله المعبود ، ويتجه الشكر والإكرام إلي الرب المنعم سبحانه وتعالي .

هكذا تكون المثاني (وهي الألفاظ التي سبق ذكرها) سبعا ولكن المثنويات اربع بيانها كما يلي :

١ - مثنوية بين الألوهية والربوبية تكمن في نفظ الجلالة (اللّه) .

٢ - ومثنوية بين مالك يوم الدين من جهة ورب العالمين من جهة أخري.

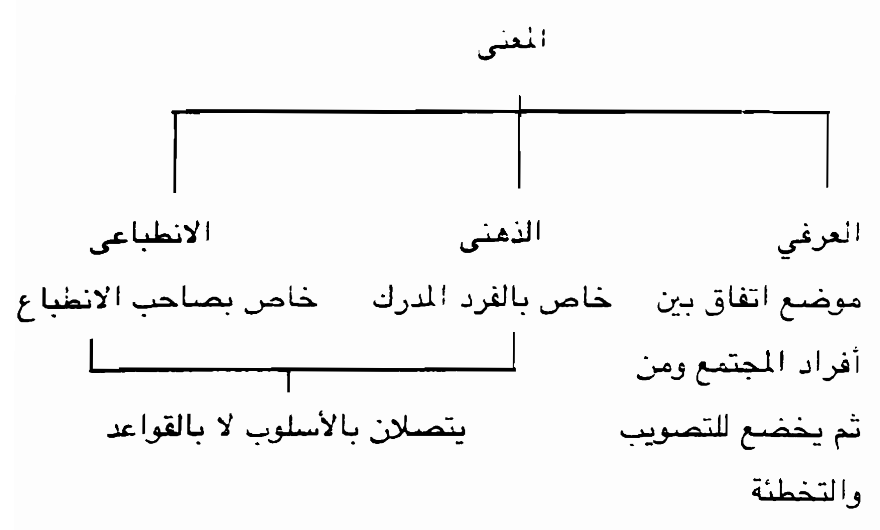
٣ - وثالثة بين الرحمن والرحيم .

٤ - أما الرابعة فبين «إياك نعبد» و «إياك نستعين».

أرجو أن يكون اجتهادي صائباً وأسأل اللّه التوفيق .

ظلال المعانى فى القرآن الكريم

من المعروف أن المعني لايستدل عليه بالألفاظ فحسب ، وإنما تتعدد وسائل الدلالة عليه بحيث تشمل الأحداث والمواقف والانطباعات وما يكون من تجريدات ذهنية تحدث عند إدراك المعني بأي وسيلة مما سبق . دعنا أولا قبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع نعرض رسما إيضاحيا يقرب عن فهم هذا الكلام ، ويبين أنوا ع الإدراك وصلة كل منها بالمدركات :



لعل هذا الرسم البياني أن يعين علي إدراك الفرق بين أنوا ع المعني الثلاثة المذكورة إدراكاً عاماً يمهد للكلام عن كل نوع علي حدة . فالمعني العرفي ما تدل عليه العناصر اللغوية من الأدوات والصيغ الصرفية والأسماء والأفعال ومفردات المعجم وصور الجمل المختلفة وكل ما يشمل عليه العرف اللغوي من العناصر . وتتضح ظلال المعني للمعرب عند مزاولة إعراب الجملة ، لأن مصطلحات الإعراب قد لا ترد علي ذهن المعرب إلا بعد معرفته بهذه الظلال . ومن شأن تناول هذا النوع من المعني أن يكون صالحاً للتعقيد لتوالي العناصر الدالة عليه ، إلا مفردات المعجم فهي علي رغم طابعها العرفي تخضع في معانيها للتصنيف دون التعقيد . وهذا التصنيف

مع ذلك يعين علي وضوح القواعد النحوية من خلال بناء الجمل من عناصر معجمية . ومما يشتمل عليه العرف من دلائل المعني جملة العادات والتقاليد والمسالك العرفية في مجال الأعمال والأحداث والمواقف .

وإذا كان المعني العرفي يعتمد في الإدراك علي القياس فإن المعني الذهني يعتمد علي الاستنباط (الذي يلخصه لفظ إذن) والمعني الانطباعي يعتمد علي الارتداد (رد الفعل) فلو أنك ألقيت التحية إلي شخص ما فلم تظفر منه بردها وأنت تعلم أنه سمعها فإن ذلك يدل في رأيك علي أنه غير مقبل علي الاستجابة لك . وإذا وقعت حادثة قتل في مكان ما وذهب رجال المباحث الجنائية إلي موقع الحادثة فإن أول ما يطالبون به أن تبقي الأوضاع المادية علي حالها التي وجدت عليها ، ليتمكنوا من الفهم الدقيق للظروف التي صاحبت الحادثة . وسوف يكون نجاحهم في كشف غموض ما حدث مرهونا بإدراكهم الذهني للعلاقات بين ما يصادفهم من الأدلة وبين مدلولاتها الذهنية ، وهلم جرا .

وأما المعني الانطباعي فقوامه ما يثور في نفس من انفعال بما يصادف المرء مما يسبب له الإحساس بالرضا أو يبعث في نفسه الضيق . ويبدأ ذلك من ردة فعله لحالة الطقس ويمتد إلي سماع الموسيقي أو الاستعانة أو المشاهد المسرحية أو الإحساس بالسخونة الشديدة عند اللمس المفاجيء أو نحو ذلك . ومن جنس ما يثير هذا المعني ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالي : «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» (البقرة ٢٧٣) . والملاحظ أن المعني الانطباعي ليس من شأنه أن يتوقف علي عرف أو علي إدراك ذهني وإنما يتوقف علي ردة الفعل المباشرة عند الإدراك الحسي في مجمل صوره .

ويستدل علي المعني العرفي في عمومه بواسطة سياقين : سياق النص وسياق الموقف . فأما المقصود بسياق النص فهو الجانب القولي بما فيه من عناصر التركيب وما تنتظم به من تصنيف وتأليف وعلاقات وقرائن . وأما

المقصود بسياق الموقف فهو ما يصاحب المنطوق من أوضاع تداولية توصف أحيانا بأنها عناصر الموقف، وهي عظيمة الأهمية لفهم ما يقال . ويسميها المفسرون : «أسباب النزول» ، كما يسميها شراح النصوص : «المقام» . وقد تجد القصيدة الواضحة الصياغة لايتحقق فهمها إلا بعد التقديم له بذكر الظروف التي دعت لنظمها . وهذا هو سياق الموقف . ومن عناصر الموقف منشيء النص ومن يستقبله (فردا كان أو جماعة) وظروف قوله وما تركه من أثر في النفوس وما إذا كان الأداء لغوياً فقط أو كان مصحوباً بجانب حركي ... إلخ .

هذه جملة القول في المعني باختصار . ونريد الآن أن نلقي الضوء على العلاقة بين المعني وظل المعني . لأن ظل المعني لايمكن فهمه إلا بعد إدراك المعني الذي هو ظله . ولنا من هذه اللحظة أن نتناول مواقف عدد من الدراسات المختلفة من حيث النظرة إلي هذه الظلال فنبدأ بمستوي النص ثم بالنحو ثم البلاغة ثم أصول الفقه ثم الدراسات اللغوية الحديثة . فلكل من هذه الدراسات منهج تناول مشكلة المعني .

أولاً : من ظلال المعنى على المستوي النصّي :

يمكن تحت هذا العنوان أن نورد الأمثلة التالية :

١ - السؤال الوارد علي دعوي سابقة : قال تعالي :

* «فيومئذٍ لاَ يسأَلُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ» (الرحمن ٣٩) .

«ولا يُسأَلُ عن ذُنوبِهِمُ المجرِمُونَ» (القصص ٧٨) .

السؤال هو : كيف ذلك واليوم يوم الحساب ؟

والجواب الذي يسعي إليه السؤال : «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام» (الرحمن ٤١) .

* وقال تعالي : « **ما كانَ للنَّبيِّ والَّذينَ آمنوا أن يستغفرُوا للمُشركِينَ ولَوْ كانُوا أُولِي قُربىٰ من بعدِ ما تبيَّنَ لهمْ أنَّهمْ أصحابُ الْجحيمِ** » (التوبة ١١٣).

والسؤال الوارد هو : كيف ذلك وقد استغفر إبراهيم لأبيه ؟ إذ قال

لربه : «وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ» (الشعراء ٨٦) .

والجواب : «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّه تَبَرَّأَ مِنْهُ» (التوبة ١١٤) . والمقصود بالموعدة قول إبراهيم : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا » (مريم ٤٧) .

٢ - دلالة الاستفهام الإنكاري :

يدل الاستفهام الإنكاري علي ما يلي :

* إذا كان الاستفهام الإنكاري مبدوءا بحرف النفي فإنّ ظل المعني هو الإثبات أو الأمر .

الشاهد علي معني الإثبات قوله تعالي : «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ» (الضحي ٦) . أي لقد وجدك يتيما .

والشاهد علي معني الأمر قوله تعالي : «أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ» (التوبة ١٣) . أي قاتلوهم .

* أما إذا كان الاستفهام الإنكاري بغير حرف النفي فإنّ ظل المعني هو النفي أو النهي .

الشاهد علي معني النفي قوله تعالي : «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا» (الأنعام ١١٤) . أي لست أبتغي غيره .

* وقوله جل شأنه : «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا » (الحجرات ١٢) أي لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً . ولما كان ظل المعني علي نية النفي صالحا أن يكون معجميا كما يكون نحويا جاز أن يكون التلخيص المعجمي للتركيب النحوي السابق هو لفظ «عفتموه» ومن ثم عطف عليه لفظ «فكرهتموه» . ومن صور النفي المعجمي في القرآن الكريم قوله سبحانه : «وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ» (التوبة ٣٢) أي لايتقبل اللّه إلا أن يتم نوره .

أما الشاهد علي إرادة النهي فقوله تعالي : «أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (يونس ٩٩) . أي لاتكرههم علي الإيمان ، لأنه « لا إِكْرَاهَ فِي

الدِّين» (البقرة ٢٥٦) .

ويمكن صرف هذا الإنكار إلي معني النفي ليكون ظل المعني : ليس من شأنك أن تكره الناس .

٣ - دلالة الحذف :

من المعروف أنه لا حذف إلا بدليل ، وأن هذا الدليل إذا تحقق أصبح الحذف بذاته دالا علي ظل للمعني يدركه من إدراك الدليل علي الحذف . ومن شواهد ذلك قوله تعالي :

* «الْحَاقَّةُ ما الْحَاقَّةُ وما أدرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » (الحاقة ١ - ٣) .

لم ير المفسرون في هذا النص حذفاً ، ومن ثم فهموا منه الاستفهام بواسطة «ما» الاستفهامية . وفي ذلك مفارقة هي اعتقاد اتجاه السؤال من اللّه لرسوله وليس العكس . أما ظل المعني المقصود فهو التعجب الذي يدل علي حذف «أفعل» بعد «ما» في «ما الحاقة» بدليل ذكر «أفعل» في الجملة التعجبية التي بعد ذلك مباشرة (أي وما أدراك ما الحاقة) . فهذه الجملة الأخيرة معناها : وما أعظم درايتك بالحاقة ، لأنك علي علم بأشراطها وما يحدث في يوم الدين ، وقد وضح الوحي لك هذا الأمر كما تدل الأحاديث علي ذلك . أما قضية حذف «أفعل» فلها شواهد أخري في التراث العربي منها حديث أم زرع ، إذ يرد فيه قولها في مدح زوجها : «زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ! » أي وما أحبه إليّ! .

* « قَالَ لَوْ أنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً أو آوِي إلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ» (هود ٨٠) .

الجواب محذوف يدل عليه سياق الموقف ، والتقدير : لاستطعت أن أرد كيدكم إلي نحوركم . وذلك هو ظل المعني .

* «ولَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إلَى الظِّلِّ ...» (القصص ٢٣ - ٢٤) .

* «وأنه هو أضحك وأبكى (٤٣) وأنه هو أمات وأحيا (٤٤) وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (٤٥) من نطفة إذا تمنى (٤٦) وأن عليه النشأة الأخرى (٤٧) وأنه هو أغنى وأقنى» (النجم ٤٣ - ٤٨) .

إذا كان في الفعل دلالة بلفظه علي المفعول به حسن حذف المفعول به دفعا للإطناب ، فلو نظرنا إلي الآيتين السابقتين من سورة القصص وما فيهما من فعلي السقي والإصدار وجدنا أن المفعول به لكل منهما لابد أن يكون من نوع قطعان الماشيه ومن الغنم بخاصه . ومن ثم اكتفي النص بذكر الفعلين ولم يذكر الماشية وقد وضعنا في مكانها هذه العلامة(*).

* قال تعالي : «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا» (التوبة ٩٢) . هنا فاء محذوفة تصلح للتقدير في أحد موضعين . فإما أن تقدر مع «قلت» لتعطف الفعل علي «أتوك» فيكون الفعل «تولوا» وما بعده جوابا لإذا ، وإما أن تقدر مع «تولوا» فيكون هذا الفعل معطوفاً علي «قلت» . وعلي أي من التقديرين يكون التقدير الآخر ظلا من ظلال المعني .

قد يكون التركيب إستفهاميا وظل المعني تعجباً :

وقد سبقت الإشارة إلي هذا الظل في مطلع سورة الحاقة من خلال الكلام عن الحذف . ويمكن هنا أن نضيف ما يلي :

قال تعالي : «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» (الإنسان - ١).

من الواضح أن هذا التركيب لايدل بصورته علي الاستفهام . فالله سبحانه وتعالي لايسأل عباده عن أمر هو أعلم به . أما المقصود هنا فهو التعجب من طول ما مر من الدهر منذ بدء الخليقة قبل أن يخلق الإنسان . ولعل استعمال الاستفهام لإفادة التعجب ظاهرة لغوية ذات إنتشار في الأسلوب العربي وشائعة في لغات أخري . أما في الأسلوب العربي فاقرأ قوله تعالي:

«هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون» (المطففين ٣٦) .
«قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً » (الإسراء ٩٣) .
«ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» (الرعد ٣٢) .

وأما في غير العربية فقد يقول الإنجليزي الذي ضرب شخصاً آخر «and did I beat him» .

وهو يقصد «ما أشد ما ضربته!

ونحن نقول في الأسلوب العامي: قدّ إيه يضايقني الحر!! أي ما أشد ما يضايقني !

٤ - اختيار نوع اللفظ المفرد للدلالة علي ظل من المعني :

قال تعالي : « وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» (يوسف ٢٣) .
«وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ» (يوسف ٢٥) .

في هاتين الآيتين إشارة إلي ثلاثة أشخاص : يوسف عليه السلام ، وإمرأة العزيز ، والعزيز نفسه . وأشد الثلاثة ضعفاً وأولاهم بالحرج يوسف، لأنه كان في حكم الرقيق وكان العزيز في مقام سيده ، كما كانت أمرأة العزيز في حكم سيدته أيضاً . وجاءت العبارة القرآنية لتنال من قدر إمرأة العزيز وتحد من احترام القاريء لها . فهي في الآية الأولي مجرد صاحبة البيت الذي يأوي إليه يوسف وليست سيدة ليوسف نفسه ، وفي الآية الثانية تخضع لسلطان سيد لها من حقه أن يكون قواما عليها دون أن يشير النص إلي العلاقة الزوجية بينهما .

«حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ » (يونس ٩٠) .

كان فرعون يري لنفسه صفة الألوهية ، وقد أصر علي هذا الرأي حتي أدركه الغرق . عندئذ أدرك أن هذا الزعم غير حقيقي ، وأن الإله الذي دعا إليه موسي استطاع أن يورده مورد التهلكة . وما دام هذا الإله قويا إلي هذا الحد فهو جدير أن يعترف له بالألوهية . ولكنه عندما أراد أن يعبر عن ذلك لم يجد من المفردات ما يدل علي ألوهية هذا الإله إلا أنه الذي آمنت

به بنو إسرائيل . أما ما أشار به موسي إلي الله جل جلاله فلم يرد فرعون أن يذكره بما سمعه من صفاته سبحانه . بل سماه في مناسبة أخري : «إله موسي» (القصص ٣٨) . وهذا يجعل للمعني ظلا خاصا .

ثانيا : ظل المعني في ضوء العلاقة النحوية والقرينة :

للمعني عند النحاة أنواع منها :

١ - معني عام حقه أن يؤدي بالحرف ، يجعلونه سببا عن أسباب البناء ، ومنه معاني الضمائر . وهذه المعاني هي التكلم والخطاب والغيبة والإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث الخ . وهذا المعني من قبيل «المعني الوظيفي».

٢ - المعني الصرفي للصيغة المجردة بصرف النظر عن أمثلتها ، كدلالة «استفعل» علي الطلب أو الصيرورة أو اعتقاد الشيء علي صفة ما أو المطاوعة نحو أقمته فاستقام . وهذا وظيفي كذلك .

٣ - المعني المفرد ، وهو المعني المعجمي الذي ينسب إلي مفردات المعجم ، والذي تنسب إليه فكرة المناسبة المعجمية وهي فرع من فروع قرينة التضام . وهي التي يقصدها البلاغيون بقولهم : «إسناد الفعل إلي من هو له». وسيأتي أن الترخص في هذا المعني خطوة ضرورية إلي إستعمال المجاز .

٤ - معني الجملة أو أسلوب تركيبها النحوي الذي ينسب إليها بحسب أصل الوضع من خبر أو إنشاء ونحو ذلك . وهذا المعني هو الذي تكون له ظلال من قبيل ما مر بنا منها تحت قسم «أولا» ، وقد تعرض له حالات من اللبس لنقص في القرائن .

ومن المعروف عند النحاة أن الخبر عين المبتدأ في المعني وأن المضاف لايضاف إلي ما في معناه ، وأن الحال تشرح معني الملابسة ، وأن الجملتين يمكن أن تعبر إحداهما عن توكيد الأخري أو تفسيرها أو تعليها أو الاستثناء منها أو تفصيل إجمالها كما رأينا منذ قليل أن مبني الجملة قد يكون علي صورة الخبر ولكن معناه هو الشرط كما في قوله تعالي : «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ» (البقرة ٢٣٣)

أي (من أراد أن يتم الرضاعة فعلي الوالدات أن يرضعن أولادهن) . أو يكون مبناها علي صورة النهي ومعناها الأمر كما في قوله تعالي : «ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون» (البقرة ١٣٢) أي تمسكوا بالرسلام حتي الموت . وهذا هو ظل المعني الأصلي الذي ينسب إلي أصل الوضع . وأود الآن أن أعرض طائفة من المعاني المنسوبة إلي الجملة بأصل الوضع وما

المعني الأصلي	ظلال المعني	
خبر	شرط	الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم (البقرة ٢٧٤).
خبر	أمر	وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ(البقرة ٢٢٨) .
خبر	دعاء	فزادهم اللّه مرض فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (البقرة ١٠).
خبر	عرض	هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (هود٧٨).
خبر	إلتزام	سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا(النور ٥١).
خبر	تعجب	إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (ص ٥)
خبر	تعميم	قَالُوا لا ضَيْرَ (الشعراء ٥٠)
شرط	تعجب	وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ (الرعد٥).
شرط	سبر وتقسيم	وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ(غافر ٢٨) . وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ(غافر ٢٨) .
شرط	تمن	لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ!(الزمر ٥٨)
شرط	تسوية	إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (الإنسان ٣) .

نداء	تعجب	قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ (يوسف ١٩).
نداء	ندبة	يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ! (يوسف ٨٤).
نداء	اختصاص	ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (الواقعة ٥١). لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (الواقعة ٥٢).
نداء	تمن	يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ (القصص ٧٩).

يكون لكل منها من ظلال ، وذلك كما يلي :

وهكذا تتعدد الظلال للمعاني الأصلية الأخري وهي الأمر والنهي والاستفهام والعرض والتحضيض والرجاء والتمني والتعجب فنري لكل واحد من هذه المعاني الأصلية عددا من الظلال علي النحو الذي رأيناه . ومن شاء أن يطلع علي ذلك فعليه أن يلتمسه في كتاب : «البيان في روائع القرآن» لصاحب هذا البحث .

ثالثا : ظلال المعني في البلاغة :

سبق لي أن شاركت في حلقة دراسية أقامها النادي الثقافي بجدة بالمملكة العربية السعودية في المدة بين ١٩ - ٢٤ نوفمبر ١٩٨٨ بعنوان : «قراءة جديدة لتراثنا النقدي» وكان عنوان ما تقدمت به من بحث هو : «موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصياغة اللغوية» وكان المقصود بما وراء الصياغة اللغوية مصطلحات شاعت في نقد السلف مثل : الجرس وحسن التأليف والسلاسة والجزالة والديباجة والسبك والماء والرونق مما يمكن نسبته إلي ماسبقت الإشارة إليه من المعني الانطباعي . ولم يكن أي واحد من هذه المفاهيم يخضع في منهجمهم لتناول منظم من خلال فهم نظري . حتي السبك الذي يشار إليه في زماننا في معرض دراسة النص بالمصطلح coheasion ويدرس درسا منظما في نطاق التضام والرتبة والربط لم يكن في فهمهم أكثر من إحساس بوحدة النص وانطباع بتماسكه . هذا ما كان في تلك الندوة .

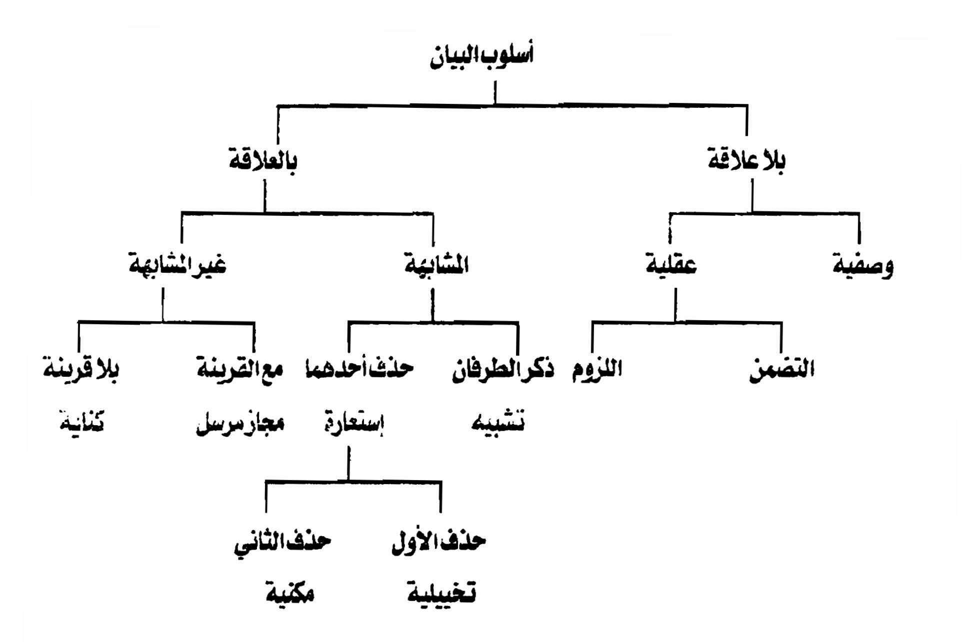
أما بالنسبة لظلال المعني التي يمكن الكشف عنها عند النظرة البلاغية فإنها تتطلب أولا أن نفرق بين علوم المعاني والبيان والبديع لما بين هذه العلوم من اختلاف في النظرة إلي موضوع الدراسة . فالمتأمل في موضوع علم المعاني يجده عظيم الصلة بالدراسات النحوية ، لأنه يفرق بين صور الإسناد الخبري وما يستفاد من كل منها وما يلزم لها ، وكذلك يفرق بين أضرب الخبر من حيث الإثبات والتأكيد ، ثم خروج الكلام علي خلاف الظاهر . ويلحق النفي في هذه الأمور بالإثبات فما قيل في موقف علم المعاني من الإثبات يقال أيضاً في حالة النفي . ومن موضوعات علم المعاني التفريق بين الحقيقة العقلية والمجاز العقلي بواسطة القول بما إذا كان اللفظ المسند قد أسند إلي من هو له أو إلي غير من هو له . وذلك عرض آخر لفكرة المناسبة المعجمية والمفارقة المعجمية والمعروف أن القول في شأنهما فرع علي الكلام في قرينة التضام في النحو ، وأن المفارقة المعجمية هي منشأ المجاز ، وشرطه وجود العلاقة والقرينة . ولقد التزم علم المعاني بالكلام في موضوعات تنتمي إلي ثلاث من قرائن النحو يتحمل كل موضوع منها ظلا من ظلال المعني علي الوجه التالي :

١ – **قرينة التضام** : طرفا الإسناد – المناسبة والمفارقة – الحذف الإضافة – الوصف – الإبدال – العطف – التخصيص – التعميم – المعاقبة.

٢ – **قرينة الرتبة** : التقديم – التوسط – التأخير.

٣ – **قرينة الربط** : الإضمار – العلمية – الموصولية – الإشارة – العهد – الجنس – التنكير – الخروج علي خلاف مقتضي الظاهر . وكل واحد من هذه المواضيع يكمن في داخله ظل المعني .

أما علم البيان فيمكن تلخيص موضوعه بأنه يدور حول استعمال الألفاظ المفردة علي النحو التالي :



هنا نظفر من علم البيان بظلال للمعني منها وجه الشبه ولازم المعني والتضمن والتخييل والعلاقة والقرينة والمجاز والإستعارة والأصالة والتبعية والتجريد والترشيح . ومن المفيد أن نشرح جانبا من هذه الجوانب وليكن هذا الجانب هو الإستعارة . يقول تعريف الاستعارة إنها : «نقل اللفظ من معناه الأصلي إلي معني آخر لعلاقة بينهما وقرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي » . فلو أخذنا عناصر هذا التعريف بالشرح لإنتهينا إلي ما يلي : يمكن أن نفترض أن شاهد الاستعارة المذكورة هو : «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدي » . عندئذ يكون الوضع علي النحو التالي :

المعني الأصلي = الشراء ، المعني الآخر = الاستبدال

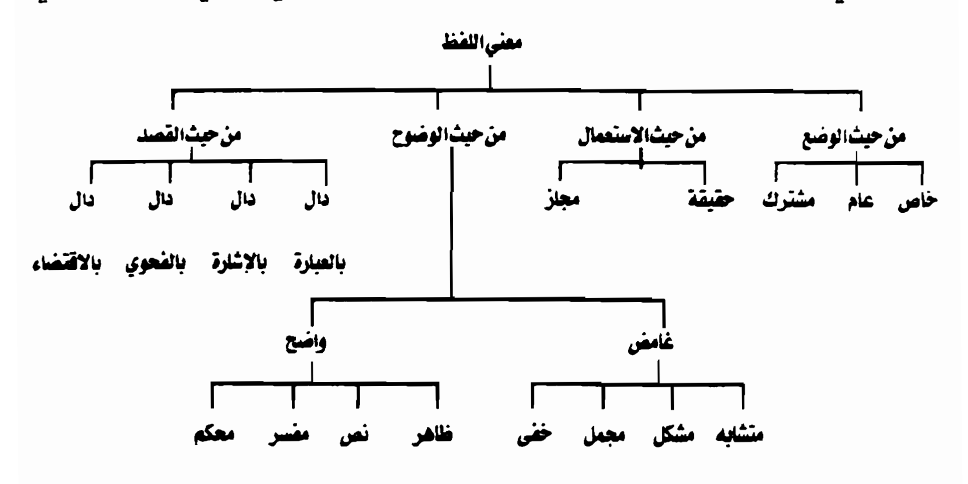
العلاقة = وجه الشبه ، القرينة = المفارقة المعجمية

شبّه الشراء بمطلق الاستبدال ثم حذف المشبه به (وهو الاستبدال) وأقيم المشبه مقامه بما بينها من وجه الشبه (أي علاقة المشابهة) فلوحظ ما بين الشراء من جهة وبين الضلالة (التي هي ليست سلعة فتشتري) والهدي (الذي ليس ثمنا فيدفع) من جهة أخري (وتلك هي المفارقة المعجمية أي

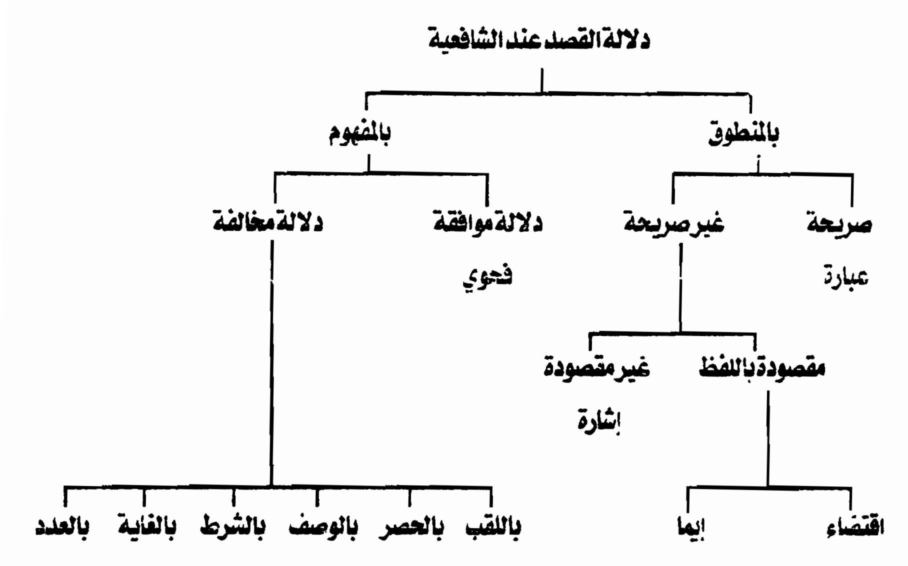
القرينة التي تحول دون إرادة الشراء) . ولما لم يكن الشراء صالحاً في هذا الشاهد للقصد أصبح الاستبدال هو المقصود . ولما لم يكن الاستبدال مذكورا كان ظلا للمعني . وليس الأمر كذلك في الكناية لأن القصد يمكن أن يتجه إلي كل من المعنيين في الوقت نفسه ، فيكون المعني البعيد (وهو لازم المعني) ظلا للمعني القريب ، ومن ثم تنتفي الحاجة إلي القرينة اللفظية وإن دعت الحاجة حينا إلي قرينة حالية ، فالإنسان لا يحس الحرج إذا وصفه أحد بأنه «يأكل الطعام» ولا بأنه «يمشي في السواق» . ولكن يحرجه الوصف بالتغوّط والمساومة . كما في قوله تعالي : « مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ» (الفرقان ٧) .

أما علم البديع الذي يدرس تحسين الكلام بعد مطابقته لمقتضي الحال (أي لسياق الموقف) ، وبعد أن يتسم بوضوح الدلالة ، فتنقسم المحسنات فيه إلي معنوية ولفظية . فأما المحسنات المعنوية فيغلب فيها طابع ظلال المعاني ، وأشهرها المطابقة والتضاد والمقابلة والأرصاد والتوهم والتعليل الخ . وأما المحسنات اللفظية فهي ظواهر شكلية أسلوبية لا تحكمها قاعدة ، وقل أن تنتمي إلي ما نحن بصدد الكلام في شأنه من ظلال المعاني .

هنا نصل إلي موقف علماء أصول الفقه من الأحناف من ظلال المعاني. وسنجد أن موقف هؤلاء من المعاني لا يتجه إلي الجملة بقدر ما يتجه إلي اللفظ المفرد. وأول ما يصادفنا من نظرهم إلي معني اللفظ ما يلي:



وكأن الشافعية وافقوا علي المعاني الثلاثة الأولي مما رآه الأحناف ، وخالفوا في حالة المعني من حيث القصد كما يلي :



وهكذا نجد المفاهيم المشتركة بين الحنفية والشافعية في تقسيم فكرة القصد تتفق إلي حد كبير في فهم المقصود بألفاظ كل ما تفرع عن المنطوق غير الصريح (أي الاقتضاء والإيماء والإشارة) ثم المقصود بالفحوي ومفهوم المخالفة . وكل ذلك من ظلال المعاني .

وفيما يلي طائفة من الشواهد القرآنية علي هذه الظلال :

العبارة : «اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (البقرة ٢٥٥) . المعني مرتبط بصريح اللفظ .

الاقتضاء : «وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» (القمر١٢) .

القدر والتفجير لابد أن يؤديا إلي إلتقاء الماء .

الإيماء : «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ» (القصص ٤٦). أنت إذن تتلقي الخبر عن الوحي .

الإشارة : «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» (الفرقان ٧) الإشارة بأكل الطعام إلي إفراز الفضلات وبالمشي في الأسواق إلي المساومات .

الفحوي : «ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأنتُم مُسْلِمُونَ» (آل عمران ١٠٢) . أي تمسكوا بالإسلام حتي الموت .

مفهوم المخالفة : «يا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا» (هود ٦٢) أي أنك لم تعد الآن مرجوا .

وأخيرا نصل إلي طريقة السيمولوجيا (وهي فرع من الدراسات اللغوية الحديثة لدراسة العلامات ودلالاتها) لنلقي نظرة علي أحد الألفاظ وننظر في ما يتفرع عنه من عناصر المعني (أي السيمات كما يسمونها) . فهذه العناصر الأولية تنقسم إلي طائفتين إحداهما لاغني عنها لتحقيق المطابقة الدلالية بين اللفظ ومدلوله والأخري يمكن للمطابقة أن تتحقق بدونها. فلو أخذنا لفظ «أم» مثلا لنري الفرق بين الطائفتين فسوف نجد أن الأمومة لا تتحقق إلا بعناصر ضرورية هي :

الأنوثة - البلوغ - المخالطة الجنسية - الحمل - الولادة - فارق السن بين الأم والمولود .

ولكن هناك عناصر أخري يمكن أن تتحقق الأمومة بدونها وهي :

الإرضاع - العطف - الزواج - المحبة - العناية ... الخ .

ومن العناصر الضرورية التي ذكرت أولا ثلاثة لافضل للأم فيها لأنها من عطاء الطبيعة وهي : (الأنوثة والبلوغ وفارق السن) ، أما الثلاثة الأخري من المجموعة ذاتها وهي . (المخالطة الجنسية والحمل والولادة) فهي تتم بحسب قرار وبجهد عضوي لايمكن أن تتم الأمومة بدونه .

ولكن هذه العناصر جميعاً ما كان منها عضوياً وما لم يكن تعد وجوه شبه بالنسبة لمجاز الأم . فإذا قلنا مثلاً : «مصر أمنا » فوجه الشبه (أي ظل المعني) أنها تغذينا بخيراتها . وإذا قلنا : «الخمر أم الكبائر» فوجه

الشبه أنها سبب في وجود الكبائر أو حدوثها ، وهلم جرا .

ويروي رواة الحديث النبوي أن سائلا سأل النبي صلي الله عليه وسلم: «من أحق الناس بحسن صحابتي ؟» فأجاب عليه الصلاة والسلام :

«أمك» . وكأنه يقول : فهي شريكة في جهد تكوينك . قال : ثم من؟ قال:

«أمك» . وكأنه يقول : فهي قد حملتك كرها . قال : ثم من ؟ قال:

«أمك» . وكأنه يقول :فهي وضعتك كرها . قال ثم من ؟ قال :

«أبوك» . وكأنه يقول : لأنه شارك في الجهد الأول فقط .

وهكذا يبدو للمتأمل كما لو كان ذكر الأم أولا جاء في مقابل ما سبقت الإشارة إليه من المخالطة الجنسية وجاء ذكرها ثانيا في مقابل الحمل ثم جاء ثالثا في مقابل الولادة أما الأب فلم يذكر إلا في مقابل الجنس فقط ، وجاء ذكره لأنه مصدر الحيوانات المنوية وما يشكل جنس المولود ذكرا كان أم أنثي ، وأما الأم فهي مستقر ومستودع .

ويتضح للمتأمل أيضاً أن قضية ظل المعني ليست حكرا علي منهج النقد الأدبي ولاعلي علم النفس اللغوي وإنما ترتبط نوع ارتباط بالدراسة المنظمة للغة ، وأن القول فيها يمكن أن يجد من البسط أكثر مما كان له في هذه العجالة .

وأخيراً أحب أن أشير إلي لفظ «سيماهم» في قوله تعالي : «تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ»(البقرة ٢٧٣) وقوله : «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ» (الرحمن ٤١) ثم إلي ما سمي به علم السيمولوجيا في العصر الحديث وهو من إنتاج البحث العلمي في الغرب .

المؤشر الأسلوبى

بين العدول والترخص

المراد بالمؤشر الأسلوبي العزوف المقصود عن توخي الأصل الاستعمالي للغة سعياً إلي غاية ما . ويتم العثور علي هذا المؤشر من خلال ممارسة قراءة النص ممارسة فعلية ولايحدد نظريا قبل القراءة ، أي أنه واقعة من الوقائع التي تحدث أثناء عملية إنشاء النص جاءت بواسطة الاختيار الحر للمنشيء ، ولعل ذلك هو الفارق الأهم بين المؤشر الأسلوبي وبين مفاهيم البلاغة العربية . ذلك أن البلاغة العربية تستخرج حقائقها من جملة ما قالته العرب ثم تتناول ظواهر لا وقائع ثم إنها تنظر لهذه الظواهر قبل أن تستخرجها من نص بعينه ، وتقعّد لها أحيانا فتنفي عنها طابع الاختيار الحر (لأن القاعدة ملزمة بالطبع) ، وهي تحصر هذه الظواهر في عدد معين من المفاهيم كالتشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية الخ ، وتقفل الباب دون أمور غير ذلك فتضيّق واسعا ، وتحصر الطاقة الأسلوبية في عدد من الإجراءات المحددة . ثم أنها أخر الأمر لا توحي بأن هذه الإجراءات تتسم بطابع «الإنحراف» عن أصل الاستعمال حين تحيطها بالتعقيد الإجرائي كإجراء الاستعارة بخطوات محددة وحصر علاقات المجاز الخ . وكذلك شغلت البلاغة نفسها بالتحسين والتقبيح فبالغت في مدح ماعدته حسنا ، كالمحسنات اللفظية القائمة علي انسجام الأصوات ، كما بالغت في تقبيح ماعدته قبيحا ، كتنافر الحروف ، علي حين يمكن أن يكون التنافر نفسه مؤشراً أسلوبياً للإيحاء بأمر ما ، وكثيرا ما يلجأ المبدعون من الأدباء إلي تسخير التنافر في حكاية الصوت للمعني .

هذا وقد يكون المؤشر الأسلوبي صوتيا أو صرفيا أو نحويا أو دلالياً أو ثقافيا ينحرف به الأديب عن السلوك الاجتماعي إما بإنحرافه هو شخصيا كالتعرض للقيم والمباديء الاجتماعية وإما بإنحراف ما يصوره في

نصوصه من أشخاص وعلاقات . ونستطيع أن نضرب مثلاً للمؤشر الأسلوبي الصوتي بما نجده من مقابلة التفخيم والترقيق في قوله تعالي : «وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » (النازعات ٣٠) وقوله جل شأنه : «وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا» (الشمس ٦) فالفعل واحد لم يتغير ولكن الذي تغير فيه هو أول أصواته الذي جاء مرققا في الخبر المجرد ولكنه جاء مفخما عند القسم ليكون ردءاً للتأكيد الذي جاء به القسم في الآية . ومن المؤشر الأسلوبي الصرفي ما نجده في تحويل اسم سيناء إلي سنين في «وَطُورِ سِينِينَ» (التين ٢) والياس إلي الياسين في « سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ» (الصافات ١٣٠) وإنشاء صيغ جديدة للمبالغة نحو «كّبار » في قوله«وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا» (نوح ٢٢) و «عجاب» في قوله تعالي « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» (ص ٥) ومن المؤشر الأسلوبي النحوي تقديم جملة الحال علي الفعل في قوله تعالي : «وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ» (هود ٣٨) وقوله «وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ» (هود ٤٢) والترخّص في الافتقار المتأصل في «وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» (هود ١١١) ومن المؤشر الأسلوبي الدلالي ارتجال ألفاظ لمفاهيم جديدة كالزقوم والغسلين .

وأخيراً يمكن أن نضرب المثل للمؤشر الأسلوبي الثقافي بالأدب المكشوف والغزل بالمذكر وبخلاء الجاحظ وإنكار نسبه الشعر الجاهلي كما نجد ذلك عند ابن حجاج وابن سكرة وأبي نواس وأهل مرو كما صورهم الجاحظ ثم عند كتاب الشعْر الجاهلي لطه حسن في أيامنا هذه .

عند هذا الحد أود أن أبين المقصود بمفهومين اشتمل عليهما العنوان لنري صلة المؤشر الأسلوبي بكل منهما . وذانك هما :

١ - العدول .

٢ - الترخص .

أولاً : العدول : من الأصول علمية معروفة ومنها أصول عرفية غير مدونة وهي التي تعرف باسم العادات والتقاليد والفضائل والآداب العامة مما يطلب من كل فرد أن يطابقه في سلوكه . ويطول بنا القول إن حاولنا

الخوض في الأصول العرفية ، ومن ثم يجزئنا أن نقتصر علي الأصول العلمية وأن نختار منها الأصول النحوية لأنها أقوب أنوا ع الأصول إلي موضوعنا هذا . حين نظر علماؤنا الأقدمون نظرة في اللغة يريدون إيضاح معمياتها وجدوا فيما بين أيديهم من المسموع تباينا في سلوك العناصر اللغوية لايعين علي الإلمام بما وراءه من نظام مطرد . فوجدوا مثلاً :

ضرب	يضرب	اضرب	ضارب	مضروب
أخذ	يأخذ	خذ	آخذ	مأخوذ
عدّ	يعدّ	عدّ	عادّ	معدود
ولد	يلد	لد	والد	مولود
قال	يقول	قل	قائل	مقول
وقي	يقي	ق	واق	موقي
رمي	يرمي	ارم	رام	مرميّ
حوي	يحوي	احو	حاو	محوي

فوجدوا أن الكلمات علي قربها من حيث أقسام الكلم تختلف من حيث استصحاب صورتها التي تعرف بها . ثم نظروا في الاستعمال فوجدوا الكلمات المفردة تتعدد معانيها في المعجم وتختلف علاقاتها في النحو فلا يكاد المرء ينسب إلي الكلمة معني أو علاقة إلا أن تقع في تركيب نحوي أو جملة . ولكنهم لمحوا وراء هذا التباين إنسجاما وخلف الفوضي نظاما يمكن الوصول إليه بالمنهج العلمي وإن لم يظهر في الاستعمال . وإذا كانت اللغة من صنع المجتمع فإن المنهج من صنع الباحث الفرد . فماذا صنع النحاة من السلف حتي يكون لهم منهج ؟ لقد كونوا بنية ذهنية تجريدية مفارقة للإستعمال سموها «الأصول» فجعلوا لكل طائفة من العناصر أصلا ترد إليه مفرداتها فما وافق الأصل منها سمي «مستصحبا» وما كان مختلفا عن

الأصل قيل أنه «معدول به عن الأصل » ومن ثم يستحق أن «يرد إلي أصله» . وإذا نظرنا إلي الكلمات السابقة وجدنا كلمة معدول بها الأصل. فالقول بالإستصحاب والعدول والرد هو الحيلة المنهجية التفسيرية التي لجأ إليها النحاة لإعلان الوحدة المختفية تحت التنوع . وقد اتضح أنها تنتمي إلي فكر ثاقب وخيال منتج حتي لقد قال بعض المستشرقين أن الفلسفة الإسلامية الحقيقية هي الفكر النحوي عند العرب .

وأفضل ما في هذه القضية وأعلاه طبقة ذكاء تلك القواعد التصريفية والضوابط التأويلية التي صاغها النحاة للرد إلي الأصل ولتقدير ما ينسجم مع الأصل عند العدول عن الأصل وسنضرب لذلك الأمثلة :

١ - لتبلونّ :

أ –اجتمعت في آخر الكلمة ثلاث نونات في الأصل فصارت الكلمة لتبلوونَنَّ (المشددة بنونين).

ب – حذفت نون الرفع لأنها لا يتعلق بوجودها معني بخلاف نون التوكيد .

جـ – عندئذ أصبحت الكلمة لتبلوُوْنَّ .

د – التقي ساكنان هما واو المد والعنصر الأول من التشديد .

هـ – حذفت واو المد لدلالة الضمة التي قبلها عليها . فصارت الكلمة «لتبلوُنَّ».

٢ - إذا السماء إنشقت :

أ – الأصل في «إذا» الظرفية المفيدة للشرط أن تدخل علي الفعل.

ب – والمضمر يستحق التفسير .

جـ – الفعل مضمر بعد «إذا» لما سبق في (أ) والفعل المذكور بعد ذلك هو المفسر للمضمر .

هـ – أصل التركيب : «إذا انشقت السماء انشقت».

و – ثم يحذف الفعل الثاني بتطبيق القاعدة رقم (جـ) .

فالمثال الأول من هذين تصريفي والثاني تأويلي وتفسيري ولا تتسع المسافة للإستطراداد بذكر أمثلة أخري . وللغة قرائن يتضح بها المعني :

١ – بنية الكلمة .

٢ – الإعراب .

٣ – الربط .

٤ – الرتبة .

٥ – التضام .

٦ – دلالة السياق .

٧ – تنغيم الكلام .

وكلها صالح أن يعدل عن أصله إلا دلالة السياق وتنغيم الكلام ففي العدول عن أصلهما ضرر يصيب الفائدة والقصد . ومع أن العدول يتطلب الرد نصادف بعض حالات العدول عن أصل القرائن الخمس الأولي وهي تلقي من النحاة والقراء ترحيباً عاماً حتي كان حالات العدول هذه أصول مقبولة لا اعتراض علي أصالتها . ويمكن أن ننسب إلي كل قرينة من هذه الخمس ما ينتمي إليها من هذه الحالات علي النحو التالي :

١ – **البنية** : يعدل عنها عدولا مقبولا بإحدي الصور الآتية :

أ – **النقل** : وقد اعترف النحاة به في باب العلم المنقول وفي التمييز المحول عن الفاعل أو المفعول وفي نهاية عنصر كنيابة يا النداء عن الفعل وسداد الفاعل مسد الخبر ونيابة كل وبعض عن المفعول المطلق الخ . ففي ذلك نقل للفظ من استعماله الأصلي إلي استعمال آخر . ومما ينتمي إلي هذا النوع من العدول المقبول مبدأ التضمين .

ب – **تسخير اللفظ لتوليد المعني** : ومنه حكاية الصوت للمعني كما

ذكرنا بالنسبة لقوله تعالي : «وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا» (الشمس ٦) ومنه تنكير اللفظ كما في قوله تعالي : «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا» (النحل ٩٤) وقوله : «أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّه» (الزمر ٥٦) وتعريف اللفظ بأل دون الإضافة نحو «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» (يوسف ٥٣) وتحويل الأخبار بالموصول إلي معني الشرط بإيراد الفاء في الخبر نحو «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ» (محمد ٨) وقوله : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّه ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» (محمد ٣٤) وقوله : «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» (النور ٢) . ويتم تسخير اللفظ لأداء المعني بإخراج الضمير عن استعماله المطابق لمرجعه إلي أن يدل علي الشأن أو الفصل . ويصدق ذلك أيضا علي الإشارات . فأما الشأن فنحو «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (الأنعام ١٣٥) وكذلك «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ» (الحج ٤٦) ومنه أيضاً : «ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّه النَّارُ» (فصلت ٢٨) وكذلك «وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ» (فصت ٢٣) وأما الفصل فنحو «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ» (النجم ٤٩) ومنه بالنسبة للإشارة ما رآه النحاة ربطا بالإشارة نحو «وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ» (الأعراف٢٦) .لأن الضمير يعاقب الإشارة في هذا الموضع فالإشارة وظيفتها الفصل ولا محل لها من الإعراب .

٢ - الإعراب :

يعدل عن الإعراب عدولا مقبولا بواسطة ما يسمي «إعراب الجوار» كما في قول العرب «حجرُ ضب خربٍ» بجر صفة المرفوع لمجاورتها لمجرور بالإضافة فصل بينها وبين موصوفها وكذلك قول إمريء القيس :

كأن ثبيرا في عرانين وبله　　　كبيرُ أناس في بجاد مزملِ

بجر «مزمل» وهي صفة «لكبير» ومنه قراءة «عاليهم ثيابُ سندس خضرٍ» الدهر ٢١ بجر «خضر».

٣ - الربط :

يكون الربط بالمطابقة كما يكون بذكر الرابط ويتم العدول المقبول عن الربط بما يلي :

أ - **الالتفات** : وهو إما أن يكون نحويا يلتفت به عن صورة الضمير وإما أن يكون دلاليا يبقي معه الضمير علي حاله ويختلف مرجعه . فمن الالتفات النحوي قوله تعالي ك «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا» (فاطر ٢٧) . ومن الدلالي قوله «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ» (النور ٣٣) فالضمير (الواو) في «كاتبوهم» و «آتوهم» لم تتغير صورته وأن تغير مدلولة فهو في الحالة الأولي لمن يملكون الرقاب وفي الثانية للمحسنين من غيرهم . وقد يجتمع الأمران كما في قوله تعالي «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (الحجر ٢٤ - ٢٥) قارن «منكم» و «يحشرهم» .

ب - **التغليب** : وهو إما نحوي وإما معجمي ففي النحوي عدم المطابقة لتعدد المراجع وتنوعها نحو « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم» (الحديد ١٢) وفي هذه الحالة يكون التغليب للمذكر علي المؤنث . وأما المعجمي فقد يغلب فيه أحدهما دون تمييز كتغليب المؤنث في لفظ «الوالدين» (لأن الأب لايلد وإنما تلد الأم) مع ملاحظة أن في «الوالدين» تغليبا نحويا للمذكر إذ جاء اللفظ بدون التاء فلم نقل «الوالدتين» وأما تغليب المذكر معجميا فنحو «الأبويين» .

جـ - **المراوحة** : وذلك بالنظر إلي اللفظ الواحد باعتبارين فيذكّر حينا ويؤنث حينا آخر إذ يقال مثلاً «قالت العرب كذا» كما يقال «قال العرب كذا» .

د - **حذف الرابط** : وشرطه وجود الدليل نحو « كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ

رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ» (البقرة ٢٥) أي رزقناه بدليل لفظ «رزقا» وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (الأنعام ١٢١) ودليل حذف الفاء من «انكم» هو تركيب الجملة . ومنه نزع الخافض وحذف العاطف عند عطف الجمل وغير ذلك .

٤ - الرتبة :

وقد علمنا أنها إما محفوظة وإما غير محفوظة وليس عن الأولي عدول من هذا النوع وإنما يعدل عنها بالترخص كما رأينا في آيتي هو (٣٨ - ٤٢) من قبل وكما سنري عند شرح المقصود بالترخص . أما غير المحفوظة فيكون العدول عنها بالتقديم والتأخير وباللف والنشر المشوش وبعكس الترتيب الزمني والمنطقي للأحداث وعدم حفظ رتبة الأشباه . وذلك كما يبدو فيما يلي :

أ - **التقديم** : ومثاله : « يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا» (النساء ٢٦ - ٢٨) لاحظ التقديم والتأخير لموضع فعل الإرادة بالنسبة للفظ الجلالة .

ب - **اللف والنشر المشوش** : ومثاله قوله تعالي : «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ»(الروم ٢٣) أي منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار وقوله «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا» (الروم ٤٨) أي فيبسطه في السماء ويجعله كسفا كيف يشاء .

جـ - **عكس الترتيب الزمني** : ومثاله : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا

وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا» (النساء ١٦٣ - ١٦٤) أورد ذكر عيسي وغيره من بني إسرائيل قبل هارون وسليمان وداود وموسي وأورد سليمان وداود قبل موسي إلي غير ذلك .

د - **عكس الترتيب المنطقي** : ومثاله : «اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ» (النمل ٢٨) أي اذهب فألقه فانظر ثم تول عنهم . وكذلك « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ » (النجم ٨) أي تدلي فدنا .

هـ - **تشويش رتبة الأشباه** : الأصل عند توالي الأخبار أو توالي الصفات أو الأحوال الخ أن يقدم القصير علي الطويل وقد يدعو الداعي إلي عكس ذلك كما في قوله تعالي : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا قَيِّمًا» (الكهف ١ - ٢) أي أنه أنزله قيما ولم يجعل له عوجاً وداعي التقديم والتأخير هنا أن ما بعد لفظ «قيما» شرح وبيان وتفصيل لمعناه فكان من المناسب أن تتصل بشرحه . وكذلك «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً » وكفي به بذنوب عباده خبيرا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوي علي العرش الرحمن فاسأل به خبيرا » (الفرقان ٥٨ - ٥٩) هناك خبران لمبتدأ مقدر أولهما « الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» والثاني «الرحمن» وقد جاء اللفظ الأقصر آخرا لأن «الرحمن» صاحب العرش ويمكن لخبرة الإنسان أن تدرك قدرة الله عليه ولاتدرك ما سبق في الأزل من خلق السموات والأرض ولذلك أخر لفظ «الرحمن» ليجاور «فاسأل به خبيرا».

٥ - **التضام** :

التضام مصطلح يشتمل علي الافتقار بنوعيه وعلي الاختصاص وعلي التنافي ثم تدخل تحته المفارقة المعجمية آخر الأمر وهو يعتمد علي الذكر

والاقتصار والاتصال ورعاية الاختصاص والفائدة . ويعدل عن الذكر بالحذف وعن الاقتصار بالزيادة وعن الاتصال بالإعتراض أو الفصل وعن رعاية الاختصاص بتجاهله وعن الفائدة بالمقارقة المعجمية .

أ - **الحذف** : الأصل في الكلام الذكر ولايقع الحذف إلا بدليل يدل علي المحذوف فإذا دل دليل علي ذلك جاز الحذف . وليس وجوب الحذف من موضوعنا لأنه ليس من قبيل الاختيار الحر وقد يحدف الحرف كما في نزع الخافض وحذف الفاء من جواب الشرط الخ وقد تحذف الكلمة كحذف المضاف نحو : «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» (يوسف ٨٢) أو المضاف إليه نحو : «لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ» (الروم٤) أو المفعول به نحو : «فـولَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ الخ» (القصص ٢٣) وقد يحذف الموصوف نحو : «وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا » (الصف ١٣) أو الصفة نحو: «يأخذ كل سفينة غصبا» وهلم جرا . وقد يكون الحذف لشطر الجملة نحو : «بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ» (سبأ ١٥) أو الجملة كاملة أو جمل متعددة كما في يوسف ٣٢ - ٣٣ ، ٣٥ - ٣٦ ، ٤٦ ، ٤٩-٥١ ، ٥٤ - ٥٦ وكما في طه ٦٨ - ٧٠ ، ١٢٠ - ١٢١ .

ب - **الزيادة** : وهي عدول عن أصل الاقتصار . معني الاقتصار أن يقوم التركيب علي عناصر أقرها تأصيل النحاة لتكون وحدها من مطالب التركيب النحوي فإذا زيد علي هذه العناصر شيء من غيرها فإن زيادة المبني تدل علي زيادة المعني أي علي التأكيد . ومعني هذا أن ما عده النحاة زائداً يقع في فهم البلاغيين موقع وسائل التوكيد . فقد يزاد حرف الجر نحو «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» (فصلت ٤٦) وقد تزاد «لا» نحو «فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» (الواقعة ٧٥ - ٧٦) وقوله سبحانه : «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ» (الأنعام ١٠٩) وقد يزاد حرفان نحو:

«أتتركون في ما هاهنا آمنين» (الشعراء ١٤٦) أي أتتركون هنا وقد يزاد غير ذلك .

جـ - الاعتراض : وهو عدول عن الاتصال ولايكون إلا بالجملة التامة الأجنبية علي ما أعترضته . كما في قوله تعالي : «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » (آل عمران ١٣٥) وكذلك: «لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون» (النساء ١٦٦) وقوله : «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» (ص ٣٩) .

د - **الفصل** . وهو أيضاً عدول عن الاتصال وهو نوعان أحدهما الفصل النحوي بين لفظين بينهما علاقة سياقية ويكون بما دون الجملة نحو : «وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع » (الأنعام ٧٠) جاء الفصل هنا بين الموصوف وصفته. وكذلك «يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » (الأنعام ١٥٨) فصل بالفاعل بين المفعول وصفته . والنوع الثاني فصل بلاغي يتمثل في حذف حرف العطف عند عطف الجمل نحو: «ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون» (القصص ٦٢ - ٦٣) .

هـ - **تجاهل الاختصاص** : وواضح أنه عدول عن رعاية الاختصاص والمعروف أن حروف الجر مختصة بالأسماء وحروف الجزم مختصة بالأفعال الخ فإذا حذف المدخول أو دخل المختص علي غير مدخوله فذلك هو المقصود بتجاهل الاختصاص ومن ذلك «وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم» (هود ١١١) حيث حذف المضارع بعد

لما ومنه «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ» (الهمزة ١ - ٢) إذ وصفت النكرة بالاسم الموصول وربما بما سهل ذلك أنها وصفت بنكرة مثلها فأصابها شيء من التخصيص المقرِّب من التعريف .

و - **المفارقة المعجمية** : وقد رأينا من قبل أن المفارقة قد تؤدي إلي الإحالة فتذهب بالفائدة من الكلام وقد تؤدي إلي المجاز وهذا هو المقصود في موضعنا هذا فكل مجاز في الاستعمال واقع في نطاق المفارقة المعجمية سواء في ذلك المجاز اللغوي والمجاز العقلي.

هكذا يظهر لنا أن المقصود بالعدول هو الأساليب التالية :

النقل - تسخير اللفظ لتوليد المعني - الجوار - الالتفات - التغليب - المراوحة - حذف الرابط - التقديم - اللف والنشر المشوش - عكس الترتيب الزمني أو العقلي - تشويش رتبة الأشباه - الحذف - الزيادة الاعتراض - الفصل - تجاهل الاختصاص - المفارقة المعجمية . فهذه هي الوسائل الأسلوبية المجانية لتطبيق الأصول دون اعتراض من النحاة عليها لشهرتها في الاستعمال .

ثانيا : الترخص :

إذا كان موقف النحاة من العدول موقف الموافقة فإنهم لم يرضوا عن الترخص . وإذا كانوا لم يعترضوا علي القياس علي العدول سواء كان بقاعدة تصريفية كما في «قال» و «يقول» و «قل» أم بغير قاعدة كما ذكرنا في الإلتفات والتغليب ونحوهما فلقد أبدي النحاة سخطهم علي الترخص فزعموه أحيانا شذوذا وأحيانا أخري قلة أو ندرة أو نسبوه إلي قوم بعينهم . وكل ما أظهره النحاة للترخص من تسامح أنهم قبلوا الرخصة بشرط ارتهانها بمحلها وعدم القياس عليها وأنهم جعلوا من أصولهم أصلا يقول : «الشذوذ لا ينافي الفصاحة» . وهذا الأصل أيضاً يصف موقف القراء من القراءات التي سموها «شاذة» وكما دخلنا إلي العدول من مدخل القرائن النحوية يحسن أن ندخل إلي الترخص من هذا المدخل نفسه لأن الترخص بحكم التسمية تسامح في المحافظة علي القرينة وأهدار لها . وهكذا نجد في

كلام الفصحاء ترخصا في البنية حينا وفي الإعراب حينا آخر وفي الربط حينا ثالثا كما نجده أحيانا في الرتبة أو التضام . أما المناسبة المعجمية فإنها تأذن للعدول كما مر في «المجاز» ولا تأذن للترخص لأن الترخص يذهب بالفائدة . وأما دلالة السياق فإن الترخص فيها يؤدي إلي اللبس وليس في تنغيم الكلام رخصة . وفيما يلي بيان للترخص في كل قرينة واحدة .

أ - **البنية** : إذا عرف الإنسان بتكوين جسمه وملامحه فإن الكلمة تعرف بصورتها التي عرفت بها . فإذا تغيرت الصورة قام الاحتمال بعدم التعرف علي الكلمة إلا أن يكون فيما يحيط بها دليل علي هوية الكلمة . كلنا يعرف «الطور» بأنه جبل في «سيناء» وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالي «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ» (المؤمنون ٢٠) ولكن ورد أيضاً «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ» (التين ١ - ٢) ، وكلنا يعرف نبي الله «الياس» أنه يحمل هذا الاسم «وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» (الصافات ١٢٣) ولكننا نقرأ أيضاً « سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ» (الصافات ١٣٠) ومن هذا القبيل ما نقرأ في شعر شوقي من تسمية نهر TAMES باسم التاميز وتسمية الطيار «ليثام» باسم لتهام وهو أول من هبط بطائرته في عين شمس وما نراه من تشديد المتنبي لنون «الأردن» في قصيدة بدر بن عمار وقد أخذ الناس عنه ذلك حتي شاع ذلك والأصل الأفراد .

ب - **الإعراب** : كلما ترخص الكلام الفصيح في الإعراب حاول النحاة أن يتجنبوا الاعتراف بالرخصة وذهبوا إلي التأويلات البعيدة يحاولون بها رد الكلام إلي القواعد . قال تعالي : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ...» (المائدة ٦٩) فرفع ما عطف علي المنصوب وقال « وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» (البقرة

١٧٧) فنصب ما عطف علي المرفوع . وقال تعالي : «إنْ هذان لَسَاحِرَانِ» (طه ٦٣) برفع اسم إن . وقصة الفرزدق مشهورة إذ قال : «الا مسحتا أو مجلف» وشرط كل رخصة من هذه وغيرها أن يؤمن معها اللبس .

جـ – **الربط** : قد يكون الربط بالمطابقة و التكرار أو الكناية بالضمير ونحوه أو الأداة . فمن قبيل الترخص في المطابقة قوله تعالي : «**قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**» (فصلت ١١) وقوله «**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا**» (الحج ١٩) وقول علي رضي الله عنه» أنا الذي سمتن أمي حيدرة» بدلا من «سمته أمه» وقول المتنبي «أنا الذي نظر الأعمي إلي أدبي » بدلا من «أدبه» أما في غير المطابقة فيترخص بحذف الرابط نحو «من يفعل الحسنات الله يشكرها» وقوله تعالي « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (الأنعام ١٢١) .

د – **الرتبة** : تشويش الرتبة غير المحفوظة يعد من قبيل العدول أما الترخص فهو تشويش الرتبة المحفوظة وقد جاء من هذا القبيل تقديم جملة الحال علي عاملها في قوله تعالي : «**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ**» (هود ٣٨) أي سخروا وهو يصنع وقوله : «**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ**» (هود ٤٢) أي نادي ابنه وهي تجري بهم .

هـ – **التضام** : هو افتقار أو اختصاص أو تناف وامتناع . ومن الترخص في التضام جل ما في القرآن من الآيات التي تبدأ بحرف «أم» دون أن تتقدمها الهمزة وجل الآيات التي تبدأ بالحرف «بل» دون أن يتقدم عليها كلام يصح أن يضرب عنه صفحا ومن ذلك قول الشاعر :

نحن الأولي فاجمع جمو　　　　ك ثم وجههم إلينا

إذ إن «الأولي» من الموصولات المفتقرة إلي صلة وقد حذفت الصلة لدلالة السياق علي إرادة التحدي أي نحن الأولي نتحداك ومنه كل فصل

بأجنبي بين المتلازمين وشرط كل ذلك كما ذكرنا ألا يضر الترخص بوضوح المعني فيؤدي إلي اللبس أو الإحالة .

هنا يأتي السؤال الذي من أجل الاجابة عليه كان كل التمهيد السابق. لقد بيّنا المقصود بالمؤشر الأسلوبي والمقصود بالعدول والمقصود بالترخص وقلنا آن المؤشر الأسلوبي انحراف عن مألوس الإستعمال وان العدول هو عدم استصحاب الأصل ولكنه يقاس عليه وان الرخصة خروج عن الأصل لايقاس عليه . فإذا كان الأمر كذلك فهل يعد المؤشر الأسلوبي من قبيل العدول أو من قبيل الترخص أو يشملهما معا. وإذا شملهما فهل هو مقصور عليهما أو هو أوسع مجالا منهما ؟

العدول والترخص كلاهما خروج علي أصول ولكن العدول لشهرته لايعد خروجا علي مألوف الاستعمال وان خرج علي الأصول يعد خروجا علي مألوف الاستعمال أيضاً وهذا هو الفارق بين المفهومين . ولقد سبق لنا في مطلع هذا العرض أن جعلنا المراد بالمؤشر الأسلوبي هو العزوف المقصود عن توخي الأصل الاستعمالي للغة سعيا إلي غاية ما . فإذا كان في العدول وفي الترخص معا هذا النوع من العزوف فأولي بمفهوم المؤشر الأسلوبي أن يشملهما جميعا . غير أن الترخص أوغل في هذا المفهوم من العدول لأن العدول مألوف ومقيس ومن ثم يقف في شهرة الاستعمال موقفاً لايبعد به كثيرا عن شهرة الأصل أما الترخص فهو مرهون بمحله ثم أنه لايقاس عليه ومن ثم كان أسبق إلي الذهن عند ذكر المؤشر الأسلوبي .

وإذا كان النحاة قد وقفوا بجواز الرخصة عند حد زماني معين هو نهاية عصر الاستشهاد وجعلوا الترخص بعد ذلك غلطا ووسموه بعدم القبول، ثم إذا كانوا وقفوا بها عند حد مكاني لا تتعداه فجعلوها مرهونة بمحلها فلا يقاس عليها ، فلربما كان ذلك قيدا علي حرية الإبداع الأدبي من جهة وسببا لتأثير الرخصة بوصفها مؤشرا أسلوبيا من جهة أخري ، لأن غير المألوف أقوي تأثيرا من المألوف . لهذا قلنا أن الترخص أوغل في باب المؤشر الأسلوبي من العدول .

عطف التسوية في القرآن الكريم
بين "أم" و "أو"

التسوية معني قريب من معني : «مهما يكن» . فثمة حكم لاسبيل إلي تغييره سواء وقع حدث ما أوضده وقد يأتي التعبير عن هذا الحكم في صورة الخبر أو الأمر أو النهي . وللوصول إلي عطف التسوية طريقتان :

الأولي : أن يذكر لفظ التسوية ثم تأتي الهمزة داخلة علي أحد الخيارين ثم تتبعها «أم» داخله علي الخيار الثاني المضاد لما سبقه علي حين يكون الحكم قد سبق أو يلحق التسوية بعد إستيفاء التعبير عنها . أما الطريقة الأخري للتسوية فتأتي بتوسط «أو» بين الخيارين المتضادين مع سبق الحكم أو إلحاقه أو تكراره مصاحبا الخيارين كليهما . أما وسيلة إظهار التضاد بين الخيارين فإما أن تكون نحوية بواسطة الإثبات والنفي وإما أن تكون معجمية بواسطة اللفظ وضده وسنري فيما يلي صور عطف التسوية في آيات القرآن الكريم .

أولا : التسوية بلفظ سواءً والهمزة وأم :

١ - بالنفي النحوي : قال تعالي :

«أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» (البقرة ٦) والحكم : «لايؤمنون» .

«سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين» (الشعراء ١٣٦)

والحكم : «**إن هذا إلا خلق الأولين**» .

«سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » (المنافقون ٦) .

الحكم «**لن يغفر الله لهم**»

٢ - بالنفي المعجمي : قال تعالي :

« سَوَاءٌ عَلَيْنا أجَزِعْنا أمْ صَبَرْنَا» (ابراهيم ٢١) الحكم : «مالنا من محيص»

«سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون» (الأعراف ١٥٣) الحكم : «لايتبعوكم».

والحكم في هذه الأية الأخيرة سابق علي التسوية لأن نص الآية هو : «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ» (الأعراف ١٩٣).

وقد تحل واو العطف محل «أم» بعد لفظ التسوية كما في قوله تعالي :

«سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار» والحكم أن الله سبحانه . «عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال» وهو سابق علي التسوية أيضا . والتضاد في هذه الآية معجمي لانحوي ذلك للتقابل بين الإسرار والجهر وبين الاستخفاء والظهور .

ثانياً : بلفظ أو :

هنا أيضاً قد يعبر عن التضاد بالنفي النحوي كما في قوله تعالي :

«استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» والحكم : «إن تستغفر لهم سبعين فلن يغفر الله لهم».

وقد يكون التضاد بتقابل المعني المعجمي كما في قوله جل شأنه :

«مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا» (البقرة ١٠٦) والجواب : «نأت بخير منها أو مثلها».

« وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ » (البقرة ٢٨٤) والجواب : «يحاسبكم به الله».

«إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ» (آل عمران ٢٩) الجواب : «يعلمه الله».

«إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ» (الأحزاب ٥٤) الجواب «فإن الله كان بكل شيء عليما».

«وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ» (آل عمران ١٥٨) والجواب « «لإلي الله تحشرون».

«ن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا» (النساء ١٣٥) والجواب «فالله أولي بهما».

«إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا» (الإسراء ٢٣) .

الجواب «فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما».

«قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» (الإسراء ١١٠) .

الجواب «أياما تدعوا فله الأسماء الحسني».

«إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً» (الأحزاب ١٧) .

ودليل الجواب «فمن يملك لكم من الله شيئا».

«وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ» (الملك ١٣) والجواب «إنه عليم بذات الصدور».

وقد يكتنف الجواب جملة التسوية فتكون الجملة معترضة بين جزئي الجواب كما في قوله تعالي :

«هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»(ص ٣٩) فالمعني: هذا عطاؤنا بغير حساب فامنن أو أمسك . وقد يتكرر الجواب فيأتي بعد كل من المتضادين كما في قوله تعالي :

« إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث » (الأعراف ١٧٦) أي أنه يلهث في الحالين والتقدير : «إن تحمل عليه أو تتركه يلهث».

حذف أحد الخيارين ودليل حذفه :

قد تحذف الهمزة ومدخولها قبل «أم» فإذا ذكر الحكم سابقا أو لاحقا عُدَّ دليلا علي المحذوف وقدر المحذوف في ضوء هذا الحكم ونسبت «أم» إلي عطف التسوية . أما إذا لم يذكر الحكم فأقرب ما تدل عليه «أم» هو معني الإضراب وفيما يلي بيان لكل من الأمرين :

"أم" للتسوية :

١ - « أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ » (البقرة ١٠٨) .

سبق ذلك قوله تعالي : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ» (البقرة ١٠٦) فالإلتفات من المخاطب المفرد إلي المخاطبين دليل علي إرادة خطاب الجماعة منذ البداية . فإذا كان الأمر متصلا باعتراض المشركين علي نسخ الآيات أو مطالبتهم بما لايقع في طاقة النبي صلي الله عليه وسلم فإن المعني يكون : أتؤمنون بأن الله هو القادر أم تريدون أن تسألوا رسولكم بما لايقدر عليه كما سئل موسي من قبل والحكم هو قوله تعالي : « وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» (البقرة ١٠٧).

٢ - « أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ...» (البقرة ١٣٣).

سبق ذلك قوله تعالي : «وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ » (البقرة ١٣٢) فالمعني أتؤمنون بوقوع هذه الوصية «أم كنتم شهداء» فتنكرون وقوعها.

٣ - «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ» (البقرة ١٤٠) .

سبق ذلك قوله تعالي : «قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ» (البقرة ١٣٩) فهمزة التسوية موجودة هنا فلا داعي لتصيد الخيار الآخر.

والحكم سابق علي ذلك في قوله تعالي : «وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ» (البقرة ١٣٠).

٤ - « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم» (البقرة ٢١٤) .

سبق ذلك قوله تعالي « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ

وَمُنذِرِين وأنزل معهم الْكتاب بالْحقّ ليحكُم بين النّاس فيما اخْتلفُوا فيه وما اخْتلف فيه» (البقرة ٢١٣) والمعني والله أعلم «أتكفون عن الخلاف حول الكتاب أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يقع بكم ما وقع للأمم السابقة التي اختلفت .

والحكم هو : «تلْك أُمَّةٌ قدْ خلتْ لها ما كسبتْ ولكُم مَّا كسبْتُم» (البقرة ١٣٤).

٥ - «أمْ حسبْتُمْ أن تدْخُلُوا الْجنّة ولمَّا يعْلمِ اللّهُ الّذين جاهدُوا منكُمْ ويعلم الصّابرين» (آل عمران ١٤٢).

سبق ذلك قوله تعالي : «إن يمسسكُم قرْحٌ فقد مس الْقوْم قرْحٌ مثْلُهُ» (آل عمران ١٤٠) فالمعني هو : أترضون هذا البلاء أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون بلاء .

والحكم هو : وليعْلم اللّهُ الّذين آمنُوا ويتّخذ منكُمْ شُهداء ... وليمحص اللهُ الّذين آمنوا ويمْحق الْكافرين (آل عمران١٣٩ - ١٤١).

٦ - «أمْ لهُمْ نصيبٌ مّن الْمُلْك فإذًا لاَّ يُؤْتُون النَّاس نقيرًا أمْ يحْسُدُون النَّاس علىٰ ما آتاهُمُ اللّهُ من فضْله» (النساء ٥٣ - ٥٤) .

سبق ذلك قوله تعالي : «ألمْ تر إلى الّذين أُوتُوا نصيبًا مّن الْكتاب يُؤْمنُون بالْجبْت والطَّاغُوت ويقُولُون للّذين كفرُوا هؤُلاء أهْدىٰ من الّذين آمنُوا سبيلاً» (النساء ٥١) . فالمعني : أهم أهل لهذا الحكم بالباطل أم لهم نصيب من ملك الله أم يحسدون الناس؟

والحكم : «أُولٰئك الّذين لعنهُمُ اللّهُ»(النساء ٥٢).

٧ - «أمْ حسبْتُمْ أن تُتْركُوا ولمَّا يعْلمِ اللّهُ الّذين جاهدُوا منكُمْ ولمْ يتّخذُوا من دُون اللّه ولا رسُوله ولا الْمُؤْمنين وليجةً»(التوبة ١٦) .

سبق ذلك قوله تعالي : «قاتلُوهُمْ يُعذّبْهُمُ اللّهُ بأيْديكُمْ ويُخْزهمْ وينصُرْكُمْ عليْهمْ ويشْف صُدُور قوْمٍ مُّؤْمنين ويُذْهبْ غيْظ قُلُوبهمْ» (التوبة ١٤ - ١٥)

فالمعني : أترون أنكم مكلفون بالقتال أم حسبتم أن تتركوا ...

والحكم : «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»(التوبة ١٦).

٨ - «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا» (الكهف ٩).

سبق ذلك قوله تعالي : «وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا» (الكهف ٨) فالمعني: أهذا أدلّ علي القدرة وإثارة العجب أم حسبت أن أصحاب الكهف هم العجب .

والحكم : «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» (الكهف ٢٣ - ٢٤).

٩ - «أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ» (الأنبياء ٤٣) .

سبق ذلك قوله تعالي : «قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ» (الأنبياء ٤٢) والمعني : أيجدون من خلقه من يكلؤهم أم لهم آلهة تمنعهم .

والحكم : «بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ» (الأنبياء ٤٠).

١٠ - «أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ» (الروم ٣٥) .

سبق ذلك قوله تعالي : «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ» (الروم ٣٣) فالمعني أن يكفرون بلا برهان أم أنزلنا عليهم سلطانا .

والحكم في صورة وعيد : «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»(الروم ٣٤).

في كل هذه الآيات أعاننا الحكم علي تقدير الخيار المقترن بالهمزة وهو الذي يعدّ مبرراً لاعتبار «أم» علي معني التسوية . أما إذا لم يذكر الحكم فإن أم تكون للإضراب وبخاصة إذا دل السياق علي عدم وجود هذا

الخيار الآخر كما يتضح من سياق الآيات الكريمة التالية .

١ - «أم اتَّخَذُوا من دُونه آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» (الأنبياء ٢٤) أي بل اتخذوا .

المعروف أنهم اتخذوا الآلهة وليس هناك احتمال آخر ويعزز ذلك المطالبة بالبرهان .

٢ - « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (العنكبوت ٤) أي بل حسبوا .

بدليل قوله تعالي : «ساء ما يحكمون» مما يدل علي وقوع هذا الحكم منهم فلا يوجد خيار آخر .

٣ - « أمِ اتَّخَذُوا من دُونِ اللَّه شُفَعَاءَ قُلْ أوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ولا يَعْقِلُونَ» (الزمر ٤٣) .

الدليل علي وقوع ذلك منهم قولهم : «هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عند اللَّه» (يونس ١٨) فالمعني بل اتخذوا .

٤ - «أمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّه كَذِبًا» (الشوري ٢٤) أي بل يقولون.

يحكي القرآن في أكثر من موضع أنهم قالوا ذلك .

٥ - «أمْ أنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ» (الزخرف ٥٢) أي بل أنا خير .

المعروف أن فرعون قال ذلك أو من شأنه أن يقوله فلا مكان لخيار آخر.

٦ - «أمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً» (الجاثية ٢١) أي بل حسبوا ولو لم يحسبوا ما عملوا السيئات وأقاموا علي فعلها .

٧ - «أمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ » (الملك ٢٠) أي بل من هذا ؟! فلا ينصر من دون الرحمن ناصر .

٨ - « أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ» (الملك ٢١) أي بل من هذا ؟! فالرزق من عند الله ولارازق إلا هو .

وفي كل ذلك قام الدليل إما من السياق أو من تفسير آية أخري علي أن «أم» منقطعة بمعني «بل» أي مفيدة للإضراب .

تأملات

فى بعض القيم الصوتية

في القرآن الكريم

تحت عنوان القيم الصوتية يقع عدد من الظواهر منها الإيقاع والفاصلة والحكاية والمناسبة الصوتية وحسن التأليف وطلب الخفة وبعض ظواهر التلاوة . وفيما يلي نظرات في الإيقاع والفاصلة :

أولا : الإيقاع :

لقد تعودنا أن نحكم ربط مصطلح الايقاع بالشعر الموزون ولم تعرف تقاليدنا الفكرية الارتباط بين «الايقاع» وصور التعبير الأخري ، بل إننا في معرفتنا بالأسلوب القرآني وبأنه ليس شعرا «وما علمناه الشعر وما ينبغي له» (يس ٦٩) ربما أنكرنا لأول وهلة أن نسمع كلاما عن الإيقاع منسوبا إلي القرآن الكريم ولكن هذا الإنكار يزول إذا علمنا المقصود بمصطلح «الإيقاع» وعرفنا أنه شيء مختلف عن الوزن ، وهاكم البيان . إن المدخل إلي دراسة الإيقاع لايكون إلا من خلال معرفة المقاطع العربية وكمياتها وقواعد النبر في الكلام . لقد حاول العروضيون بواسطة الأسباب والأوتاد أن يصلوا إلي دراسة أجزاء التفعيلات . وحين صاغوا عبارتهم المشهورة : «لم أر علي ظهر جبل سمكة» لم يكونوا يدرسون المقاطع لأن بعض كلمات هذه العبارة (بل أغلب كلماتها) مكون من أكثر من مقطع واحد . أما دراسة المقاطع فلها شروطها التي لابد أن تراعي منها:

١ - كل حرف متحرك هو بداية لمقطع جديد .

٢ - كل حرف ساكن هو نهاية لمقطع صوتي وقد يشدّد هذا الساكن عند الوقف.

٣ - هناك مقاطع صوتية ومقاطع أخري تأصيلية وعلاقة الأولي

بالثانية كعلاقة «قال» بـ «قَوَلَ» أي علاقة الفرع المعدول به عن الأصل بالأصل المعدول عنه .

٤ - من هنا قد يوجد مقطع في الأصل ولايوجد في الفرع وذلك كالحرف الساكن الذي لايبتدأ به فتجتلب له همزة وصل للتوصل إلي النطق به كالنون في «انطلق» فيصير مع الهمزة مقطعا صوتيا واحدا .

٥ - نحن هنا معنيون بالمقاطع الصوتية ولا نهتم للمقاطع التأصيلية لأن الإيقاع ظاهرة صوتية حسية مسموعة وليس تأصيلاً مجرداً .

وفي اللغة العربية المقاطع التالية علي المستوي الصوتي :

١ - صوت متحرك وليس بعد حركته صوت ساكن مثل المقاطع الثلاثة في «كتب» مبنيا علي الفتح فكل مقطع منها مبني من صوت متحرك ليس بعده سكون . ويرمز لهذا المقطع بالرمز (ص ح) .

٢ - صوت متحرك بعد حركته صوت ساكن مثل المقاطع التي في « لم يكتب» فاللام في «لمْ» متحركة وبعدها ميم ساكنة والياء في «يَكْ» والتاء في «تُبْ» مثلها تماما ويرمز لهذا المقطع بالرمز (ص ح ص) .

٣ - صوت متلو بالمدّ وليس بعد المد سكون كما في « لافيها » فكل من اللام والفاء والهاء بعده مد وليس بعد المد سكون ويرمز لهذا المقطع بالرمز (ص م) .

٤ - صوت متلو بالمد وبعد المد السكون كما في «الضالّين» و «الطامّة» و«الصاخّة» فالمقطع الطويل من كل كلمة من هذه يرمز إليه بالرمز (ص م ص) فالصاد الأولي من الرمز هي ضاد الضالين أو طاء الطامة أو صاد الصاخة والمد هو المد والساكن أول عنصري التشديد في الكلمة أما العنصر الثاني من التشديد فهو متحرك وكل متحرك بداية مقطع جديد (الشرط الأول السابق) .

٥ - صوت متحرك وبعد الحركة صوتان ساكنان كما في الوقف علي «قبل» و«بعد» و«شدّ» وكالمقطع الثاني من «دويبّة» و «مويدّة» لتصغير دابّة

ومادّة ويرمز لذلك بالرمز (ص ح ص ص) .

٦ - صوت متلو بالمد وبعد المد صوتان ساكنان ولايرد هذا المقطع إلا عند الوقف علي مثل «الحاجّ» و«التامّ» و«الخاصّ» و«الضالّ» فهو مقطع مرهون بموقع معين ويرمز إليه بالرمز (ص م ص ص) .

والمقطع الأول يسمي اختصارا بالقصير والمقطعان الثاني والثالث يعرفان بالمتوسطين وأولهما المقفل والثاني المفتوح والمقطع الرابع والخامس طويلان أولهما طويل المد والثاني طويل التشديد أما السادس فهو مقطع الوقف. وتبقي بعد ذلك ملاحظة لابد منها هي الإشارة إلي النقطة التي يختلف فيها المقطع الصوتي عن المقطع التأصيلي المجرد وهي نقطة واحدة لاغير . نحن نعلم أن بنية بعض الكلمت العربية تبدأ في نظام اللغة بالساكن ولكن الاستعمال الفعلي (الصوتي) يأبي البدء بالساكن فيجتلب همزة قبل الساكن تعرف بهمزة الوصل وذلك في اسماء معروفة وصيغ محددة في ماضي الخماسي والسداسي وأمرهما ومصدرهما وأمر الثلاثي وفي أداة التعريف . ولقد قال ابن مالك : «أل حرف تعريف أو اللام فقط» فأشار إلي أن الهمزة ليست من بنية الأداة وإنما هي مجتلبة لتكون قنطرة يعبر المتكلم فوقها إلي النطق بالساكن . ولاشك أن الناطق ينطق الهمزة وحركتها والساكن الذي بعدها فيكون المقطع من الناحية الصوتية (ص ح ص) ولكن نظام اللغة الذي يأبي أن يعترف بأن الهمزة جزء من البنية من حقه أن يقول إن هذا المقطع في النظام هو (ص) فقط أو إذا راعينا إطراد ورود الحركة قبله في كل الحالات فرارا من البدء بالساكن أو فراراً عند الوصل من التقاء الساكنين أمكن أن يقال إن هذا المقطع في النظام هو (ح ص) مع حذف الصاد الأولي التي هي بإزاء همزة الوصل ، نخلص من ذلك إلي أن مقطع الوصل (وهذا هو اسمه) له صورتان :

أ - صورة صوتية يرمز إليها بالرمز (ص ح ص) .

ب - صورة تأصيلية يرمز إليها بالرمز (ص) فقط أو (ح ص) والأول من رمزيه أحوط وهكذا يمكن تلخيص بنية المقاطع الصوتية علي النحو

التالي :

ص ح	ويسمي القصير
ص ح ص	ويسمي المتوسط المقفل
ص م	ويسمي المتوسط المفتوح
ص م ص	ويسمي طويل المدّ
ص ح ص ص	ويسمي طويل التشديد
ص م ص ص	ويسمي مقطع الوقف

ولايقع في اهتمام دراسة الإيقاع أن نتكلم في المقطع التأصيلي أو مقطع الوصل مادام يحتسب من الناحية الصوتية من قبيل المتوسط المقفل (ص ح ص) بإقامة الصاد التي في مطلع المقطع مقام همزة الوصل وإقامة الحاء مقام حركة الهمزة والصاد الثانية مقام الساكن الذي تم التوصل إلي النطق به بواسطة الهمزة وحركتها .

دعنا بعد ذلك نلق نظرة علي النبر ما معناه وما قواعده . إذا سمع أحدنا غيره يتكلم فإنه سيلاحظ أنه لايجعل كل أجزاء الجملة من كلامه في طبقة صوتية واحدة وإنما يرفع صوته بأحد أجزائها إلي طبقة أعلي من الصوت مع بقية الأجزاء وذلك مايعرف بالتنغيم وبه يرتبط معني الجملة إثباتا أو استفهاما أو غير ذلك .

أما المتكلم نفسه فإنه سيلاحظ أن الصوت الذي يتم عنده الانتقال من طبقة صوتية إلي «طبقة صوتية أخري يتطلب قدرا من نبض الحجاب الحاجز يزيد من ضغط النفس علي الأوتار الصوتية فيكون للصوت من أصوات الكلمة في الجملة عندئذ وضوح في السمع أكثر مما يكون لما يحيط به من أصوات . هذا الوضوح السمعي النسبي يسمي النبر - حاول أن تنطق الصيغ الصرفية الآتية ولاحظ الاختلاف بينها من حيث النبر .

فَعِل - فاَعِل - فعيل

وعندئذ ستحسّ أن النبر في الصيغتين الأوليين علي المقطع الأول وفي الصيغة الثالثة علي المقطع الثاني فإذا ثنيت فقلت فَعِلان - فاعلان - فعيلان انتقل النبر في جميع ذلك إلي المقطع الأخير .

ويخضع النبر في اللغة العربية لقواعد مطردة قليلة العدد يسهل ضبطها وتذكرها . وهذه القواعد كما يلي :

١ - يقع النبر علي المقطع الأخير في الكلمة (أو الصيغة) إذا كان هذا المقطع طويلا سواء كان طوله بالمد أم بالتشديد أم كان مقطع الوقف مثل :

مفعولْ - يفعلانْ - فَعَلْتْ - الباءْ

٢ - ويقع في الكلمة الوحيدة المقطع علي هذا المقطع الوحيد أيا كان مثل

قِ - قمِ - ما - قالْ - قلْ - حاجْ

٣ - يقع النبر علي المقطع الذي قبل الأخير في الحالات التالية :

أ - إذا كان ما قبل الأخير متوسطا والأخير إما قصير أو متوسط نحو :

استلق - حذار - علِّم - قاتل - معلِّم - مقاتل - استوثِقْ

ب - إذا كانت الكلمة من مقطعين هذا أولهما أو من ثلاثة أولها مقطع همزة الوصل نحو :

أرعَوِ - أُكْتُبْ - صُوِّرْ - انطلقِ - اخرجي .

٤ - إذا كان ما قبل الآخر طويلاً اغتفر فيه التقاء الساكنين ووقع النبر عليه مالم يكن الآخر طويلاً مثله فيقع النبر عليهما معا نحو :

الصافات - الضالين

٥ - يقع النبر علي المقطع الثاني مما قبل الآخر إذا كان :

أ - قصيرا أو متوسطا بعده قصيران أو قصير ومتوسط نحو

عجلتكَ - علَّمَكَ - لن تصِلَ - علّمكم - لم يصلوا - بينكم - بَيْتُكَ -

أُخرِجَ - مفكِّرٌ - نَظْرَةٌ - ابتسامة.

٦ - يقع النبر علي الثالث مما قبل الآخر إذا كان الآخر قصيرا أو متوسطا وقبله ثلاثة قصار نحو ضربك - بقرةٌ - يرثني - يعدهم - نَكَرِهُمْ - وَجَدَك.

٧ - لايقع النبر علي أي مقطع يسبق هذا الأخير وهناك ما يعرف باسم النبر الثانوي وهو يأتي عندما يكون ماقبل النبر الأولي من الكلمة في كمية كلمة مستقلة فيأتي النبر الثانوي لإيجاد نوع من التوازن بين هذه الكمية وما يليها وتحكمه القواعد الآتية :

١ - تقع علي المقطع السابق علي النبر إذا كان طويلا نحو :

الصافات - الضالين - أتحاجونّي

٢ - الثاني قبل النبر إذ كان هو متوسطا والذي بعده قصيرا أو متوسطا نحو :

مستبْقين - مستقيم - مستعدة - يستخفون - عاشرناهم - قاتلوهم

٣ - يقع النبر علي الثالث مما قبل النبر الأولي إذا كان هذا المقطع قصيرا أو متوسطا بعده قصيران أو كان متوسطا بعده قصيران أو قصير ومتوسط نحو

منطلقون - يستقيمون - بقرتانْ - يستبقون - محترمين - مستطيلان - كلمتان - ضربتاه

وإذا تأملنا الكلام المتصل لاحظنا تشابه المسافات بين نبر ونبر أو تقارب هذه المسافات فقد نجد بين المقطعين اللذين وقع النبر علي كل منهما مقطعا أو مقطعين أو ثلاثة علي أكثر تقدير لم يقع النبر علي واحد منها وقد يكون النبران المتواليان من قبيل النبر الأولي وقد يكون أحدهما ثانويا . هذا التشابه والتقارب في المسافة بين كل نبر وما يليه يعطي للأذن هذا الذي سميناه الإيقاع ويمنح النفس إدراكا لطابع إيقاعي للغة تمتاز به عن كل لغة غيرها من لغات البشر .

غير أنه في إمكان منشيء النص أن يكسبه من رشاقة الإيقاع مالايستطيعه المتكلم العادي حتي إذا قرأت هذا النص المنثور أحسست له خفة علي اللسان وقبولا في النفس وبهذا يمتاز أديب عن أديب آخر وإن بعض الأساليب النثرية ليستحق أحيانا أن يوصف بأنه أسلوب موقّع أو موسيقي أو رشيق دون أن يلجأ منشئه إلي محسنات لفظية من أي نوع . أنظر مثلا إلي أسلوب الجاحظ أو إلي أسلوب أبي حيان التوحيدي أو أسلوب طه حسين أو أسلوب الزيات وتأمل هذه الخاصية الإيقاعية وستجد أنها حقيقة واقعة تحس بها ولاتستطيع وصفها أو كما قال بعضهم «تحيط بها المعرفة ولاتدركها الصفة».

وحين أحس الشهاب الخفاجي بالإيقاع القرآني لم يستطع الإشارة إليه علي علاتة وإنما إنتقي منه ماطوعه لأوزان وبحور الشعر أما الإيقاع النثري فلم يكن في طوقه أن يبرزه . جاء بعبارات من القرآن الكريم علي وزان البحور وبني عليها منظومته العروضية التي تعرف بمنظومة الشهاب الخفاجي . وحسبنا أن نورد أمثلة منها في هذا السياق لنوضح ما نقصده من ذلك . يقول الشهاب الخفاجي .

١ - أطال عزولي فيك كفرانه الهوي ... وآمنت يا ذا الظبيُ فانئس ولاتنفر

فعولن مفاعيل فعولن مفاعلن ... فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

٢ - إني بسطت يدي أدعو علي فئة ... لاموا عليك عسي تخلو أماكنهم

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن ... فأصبحوا لايري إلا مساكنهم

٣ - يامديد الهجر هل من كتاب ... فيه آيات الشفا للسقيم

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن ... تلك آيات الكتاب الحكيم

وهكذا تمضي شواهده القرآنية لتكون نماذج لإيقاع خاص موزون ليس هو الإيقاع القرآني النموذجي .

قلنا قبل ذلك إن النبر قد يكون أوليا وقد يكون ثانويا والفرق بين النبرين :

أ - أن النبر الأولي أصلي والثانوي فرعي .

ب - أن الأصلي يحسب من آخر الكلمة أو الصيغة وأن الثانوي يحسب من نقطة وقوع النبر الأولي .

جـ - أن النبر الثانوي يقع في نقطة يصلح مقدار ما بينها وبين نقطة وقوع النبر الأولي أن يكون بمقدار كلمة عربية .

د - أن النبر الثانوي أضعف من النبر الأولي لأن ضغط الحجاب الحاجز علي الرئتين عند إيقاعه أضعف منه عند إيقاع النبر الأولي .

وهكذا إذ نظرنا إلي كلمة مثل «يستعينون» وجدنا بها نبرا أوليا علي المقطع الأخير «نون» ونبرا ثانويا علي المقطع الأول «يَسْ» لأن كمية ما قبل النبر الأولي هي بمقدار كلمة عربية تامة فالذي قبل النبر الأولي هو «يستعي» وكميته تشبه كمية كلمة تامة مثل «يرتقي» أو «يستقي » أو «مرتجي» أو جاهدوا » أو أية كلمة لها هذه الكمية . ولكن هذه الكمية لما كانت جزء كلمة ولم تكن مستقلة صالحة للإفراد فقد وقع النبر عليها ثانويا لا أوليا علي حين يستحق كل من الكلمات السابقة ذات الكمية المشابهة نبراً أوليا علي أولها وذلك بسبب استقلالها وصلاحيتها للإفراد .

ولو أن كل الكلمات العربية كانت من ثلاثة أصول لكان انتظام بنية الصيغ الصرفية واطراد الزوائد التي تلحق بالكلمة سببا في عدم اختلاف النبر في الكلمة المفردة عنه في السياق . أو بعبارة أخري لكان النبر يقع علي الكلمة بطريقة واحدة في الإفراد والوصل . ولكن من الكلمات التركيبية العربية ما يأتي علي حرف واحد وما يأتي علي حرفين فيلحق بالكلمة الثلاثية الأصول ويغير من كميتها فيتغير موضع النبر تبعا لذلك . ومن هنا يخضع النبر في السياق للخطة الإيقاعية ويخضع في الإفراد للبنية الصرفية . فإذا نظرنا إلي السياق وجدنا المسافة بين النبر والنبر يحكمها مبدأ هام هو ألا تتجاوز مقدار كلمة عربية واحدة سواء أكانت هذه الكلمة من مقطع طويل بمقدار «قال» و «قبل» أو مقطعين متوسطين بمقدار «علّم» و «قاتل» و «صلي» وبمقدار مقطعين أولهما قصير وثانيهما متوسط نحو «سمك» و «رمي» أو أي

مقدار يكون لكلمة ذات صياغة عربية كما سبق في الأمثلة التي أوردناها بمناسبة قواعد النبر .

وكلما تقاربت الكميات أو انتظم اختلافها حسن إيقاعها والعكس صحيح وهذا التقارب وذاك الانتظام هو الذي نجده في إيقاع الأسلوب القرآني كما يتضح من النماذج الآتية (مع وضع علامة × علي كل موضع نبر) وقد تم اختيار هذه النماذج اعتباطا فيصدق علي غيرها ما يصدق عليها :

x x x x x x x x x x x
١ - « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم
x x x x x x x x x x
في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين»(البقرة ١٩).

x x x x x x x x x x
٢ - « الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء
x x x x x x
ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم» (البقرة ٢٢) .

x x x x x x x x x
٣ - «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة
x x x x x x x x x x x x x x
من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا
x x x x
والله عنده حسن المآب» (آل عمران ١٤) .

x x x x x x x x x x x x x x
٤ - «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا
x x x
تأخذوا منه شيئاً» (النساء ٢٠) .

x x x x x x x x x
٥ - «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف
x x x x x x
بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص» (المائدة ٤٥).

x x x x x x x x x x x
٦ - «وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر
x x x x x x x x x x x x x
وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس

x x x x

إلا في كتاب مبين» (الأنعام ٥٩) .

x x x x x x x x x x x

٧ - «وإلي مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدو والله مالكم من إله

x x x x x x x x x x x x

غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فاوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس

x x x x x x x x x x x x

أشياءهم ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم

x x

مؤمنين» (الأعراف ٨٥) .

دعنا نجرب تقطيع الآية الأولي إلي دفعات النبر فيها لنري كيف يحدث الإيقاع من انتظام التوافق بين الدفعات أو انتظام أنماط إئتلافها في مجموعات :

أَوْكَ - صَيِّبِ - منَ السَّ - مَاء - فيه ظُلُ - مَاتٌ وَ - رَعْدٌ وَ - بَرْقٌ - يَجْعَـ - لوُنَ - أصَاً - بِعهُمْ - في آ - ذَانِهِمْ - منَ الصَّ - وَاعِقِ - حَذَرَ الْ - مَوْتِ - وال لاَهْ مُ - حِيطٌ - بالْكَاَفِ - رِينْ .

حاول مثل هذا التقطيع في بقية الآيات السابقة وستعلم عندئذ أن المقصود بالإيقاع ليس هو الوزن وإنما هو التوازن وستري أن هذا التوازن هو مصدر رشاقة الأسلوب وجزء مهم من أجزاء حسن استقبال النفس له .

علي أن هذا الانتظام الإيقاعي لو اطّرد دون تخلف واستمر دون إنقطاع لكان أولي بالسامع أن يملّ وباليقظة عنده أن تتحول إلي خمول ثم إلي نوم وهذا الانتظام المطرد ذاته هو الذي تجده لدي الأم حين تهز طفلها لينام وهو أيضاً الذي يجعل ضجيج الآلة عند انتظامه مدعاة للنوم فإذا توقف الضجيج صحا النائم . ولو سمح للإيقاع القرآني أن يقع في هذا الانتظام المحكم لربما أدي بالسامع إلي الملل ولكن الأداء القرآني أداء مرتل. وقد أمر الله رسوله أن ورتِّلِ الْقُرآنَ ترتيلا (المزمل ٤) بل إنه تعالي ينسب الترتيل إلي نفسه بقوله : «ورَتَّلْنَاهُ ترتيلا» (الفرقان ٣٢) والذي أفهمه من معني الترتيل أنه يتمثل في جعل القرآن أرتالا بين كل رتل منها وبين الآخر فترة فأما الأرتال بالنسبة إلي نزول القرآن فكونه تزل مُمَجَّماً بحسب الوقائع

فكان في صورة دفعات من الآيات بين كل رتل منها وبين الآخر فترة زمانية ما وهذا المعني ثابت في تاريخ نزول القرآن ولكنه لايفيدنا فيما نحن بصدده هنا وأما الترتيل بالنسبة إلي الأداء القرآني فهو أن تجعل مقاطع القرآن (والمقصود المقاطع بمعناها الذي سبق شرحه) أرتالا في القراءة بين كل رتل منها وبين الآخر مسافة يحتلها مدّ أو غنة فينقطع بالمد أو الغنة ذلك الانتظام المحكم الذي يدعو إلي الملل . وهكذا تصبح هذه المسافة نفسها (ممثلة في المد أو الصفة) جزءا من الإيقاع القرآني الذي يعتمد علي جعل المقاطع أرتالاً أو بعبارة أخري يعتمد علي الترتيل .

ثانيا : الفاصلة :

حين سمع الكفار عبدة الأصنام تلاوة القرآن لأول نزوله حاروا في أمر نظمه . فلقد كانوا يعرفون من ضروب الكلام عندهم الشعر والخطابة والسحر وسجع الكهان ولم يكن القرآن في تراكيبه ولافي أسلوبه يشبه واحدا ولا أكثر من واحد من هذه الأضرب . وحين أرادوا أن ينسبوا القرآن إلي البشر وينكروا مصدره الإلهي كان عليهم أن يجعلوا القرآن واحدا من أنواع كلامهم التي تقدم ذكرها فلما فكروا في هذا الأمر لم يستطيعوا نسبته إلي الخطابة لأن النبي صلي الله عليه وسلم لم يقم بينهم بالقرآن خطيبا ولم يستطيعوا نسبته إلي سجع الكهان لما في العبارة القرآنية من الوضوح الناصع في مقابل ما في سجع الكهان من غموض . فلم يبق أمامهم إلا أن يرصدوا أثر القرآن فيما كان من القطيعة بين بعض المؤمنين وبين أهليهم فنسبوا القرآن إلي السحر ثم أن يرصدوا ما في أسلوب القرآن من فواصل في أواخر الآيات فنسبوا القرآن إلي الشعر . وهكذا اتخذغلوهم في القرآن أحد هذين الاتجاهين .

كان من اليسير دفع الشبهة الأولي عن القرآن لأن السحر شيء والدعوة إلي الدين شيء وآخر فالسحر لايدعو إلي صلاح ولا ينتهي إلي إصلاح ولايجمع شملا ولايوحد أمة ولاينشيء شريعة ولاعقيدة وقد كان كل ذلك من آثار القرآن الكريم . وقد علم ذلك عامتهم كما علمه الخاصة منهم

فانتفي عندهم أنه سحر .

أما دعواهم أن القرآن شعر فإن دفعها يتطلب معرفة بالفرق بين الوزن الشعري ومطلق الإيقاع من جهة ثم بين القافية الشعرية والفاصلة القرآنية من جهة أخري لأن الوزن والقافية جزء من تعريف الشعر فنفيهما عن القرآن نفي لكونه شعرا بحكم تعريف الشعر .

ولقد مر بنا بيان المقصود بمطلق الإيقاع واتضح الفرق بينه وبين الوزن وعلينا الآن أن نوضح الفرق بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية .

إن تقفية الشعر تتطلب تطابق خواتيم الأبيات من الناحية الصوتية وقد جعل الإلتزام بالقافية جزءا من عمود الشعر الذي لايكون الشعر شعرا إلا به كما أن البيت (والمقصود خيمة الأعرابي) لايقوم إلا علي عمود أو عماد يعتمد بناؤه عليه . وفي القرآن من الفواصل ما يتشابه جرسه في الأذن فحين سمع الكافرون هذه الفواصل غرتهم عن ملكاتهم وأذواقهم فربطوا بينها بالباطل وبين القوافي ثم أدعوا لأدني ملابسة أن القرآن قول شاعر . وإن المتأمل في الفاصلة القرآنية ليري الفارق عظيما بينها وبين القافية حتي ليمكن تلخيصه علي النحو التالي :

١ - تتطلب القافية التطابق التام بين عدد من الحروف في آخر البيت الشعري . فإذا قرأت مثلا قصيدة شوقي :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعل علي الجمال عتابا

وجدت التقفية تحتم أن تنتهي أواخر الأبيات بألف بعدها باء وألف وأن ذلك يلتزم في نهاية كل بيت من أبيات القصيدة بل إن ذلك التزم أيضا في شطري مطلع القصيدة وهو ما يسمي «التصريع» . وكذلك الأمر إذا قرأت أية قصيدة جاهلية أو إسلامية تجري علي حدود عمود الشعر . أما الفاصلة فلا تلتزم بشيء من ذلك إذ تراها تجري في عدد من آيات السورة علي نمط ولكنها سرعان ما تتحول عنه إلي نمط آخر . وفي خلال جريها علي نمط واحد قد يكون الإلتزام مقصورا علي حرف المد فقط كما في قوله

تعالي : «خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ» (البقرة ٧ - ٨) وقد يكون بصفة من صفات الحرف كصفة الضيق (والمقصود تضييق الفم بتقريب الفك الأسفل مع الفك الأعلي أثناء النطق) كالنظر إلي الواو كما لو كانت من قبيل الياء كما في قوله تعالي بعد ذلك مباشرة : «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (البقرة ٩) .

٢ - في كثير من السور القرآنية لايكون هناك إلتزام بشيء بعد حرف المد كما في صورة الحج . فإذا قرأت هذه السورة مثلاً وجدت فواصل الآيات لاتحمل أي شبه بالتقفية لأن فواصل الآيات تتمثل في الكلمات الآتية:

عظيم - شديد - مريد - السعير - بهيج - قدير - القبور - منير - الحريق - للعبيد - المبين - البعيد - العشير - مايريد - مايغيظ - من يريد - شهيد - ما يشاء - الحميم - الجلود - جديد - الحريق - حرير - الحميد - أليم - السجود - عميق - الفقير - العتيق - الزور - سحيق - القلوب - العتيق - المخبنين - ينفقون - تشكرون - المحسنين - كفور - قدير - عزيز - الأمور - ثمود - لوط - نكير - مشيد - الصدور تعدون - المصير - مبين - كريم - الجحيم - حكيم - بعيد - مستقيم - عقيم - النعيم - مهين - الرازقين - حليم - غفور - بصير - كبير - خبير - حميد - رحيم - كفور - مستقيم - تعملون - تختلفون - يسير - نصير - المصير - المطلوب - عزيز - بصير - الأمور تفلحون - النصير.

وهكذا جاءت نهايات ايات علي النحو التالي :

اء = ١	يد = ١٢	يم = ١٢	يز = ١٢
وب = ٢	ور = ٨	ون = ٦	وط = ١
يج = ١	ير = ١٧	ين = ٦	المجموع = ٧٨
ود = ٣	يق = ٦	يظ = ١	

وانظر إلي فواصل سورة الرعد تجد الواو والنون قد ختمت الآيات الخمس الأولي ثم عدلت الفواصل التالية عن ذلك فلم تلتزم إلا ألف المد مع قطع النظر عما يتلوها من الحروف التي تختتم بها الآيات . فتجد من ذلك :

العقاب - هاد - مقدار - المتعال - النهار - وال - الثقال - المحال - ضلال - الآصال - القهار - الأمثال - المهاد - الألعاب - الميثاق - الحساب - الدار - باب - الدار - متاع - أناب - ثم تأتي كلمة «القلوب» ثم تعود الألف مرة أخري فنجد مآب - متاب - ميعاد - عقاب - هاد - واق - النار - مآب - واق - كتاب - كتاب - الحساب - الدار - الكتاب - .

ويسود هذا التباين بين الفواصل في سور كثيرة من القرآن منها :

آل عمران - هود - إبراهيم - مريم - النور - لقمان - فاطر - الصافات - ص - الزمر - غافر - فصلت - الذاريات - الواقعة - الحشر - المعارج - المدثر - القيامة - المرسلات - النازعات - عبس - التكوير - الإنفطار - الإنشقاق - الطارق - الغاشية - الفجر - البلد - الشرح - العلق - وغير ذلك من قصار السور .

ولسنا نجد شيئا مما إلتزمت به الفواصل القرآنية يصلح أن يكون قافية فالواو والميم في الشعر لاتناسب الياء والنون ومن ثم لا تقفوها وكذلك لايكفي للقافية أن تعتمد علي وجود المد الضيق قبل الحرف الأخير من البيت مع حرية اختيار هذا الحرف الأخير فكلمة «أمين» لاتقفو كلمة «إدريس» ولاتعد إحدي هاتين الكلمتين قافية بعد كلمة «نوح» علي رغم ضيق المد في هذه وتلك . وكذلك لايكفي للقافية أن يكون الحرف الأخير ألفا مطلقة فلايعد من التقفية توالي كلمات مثل : عجبا - همسا - تسليما - كثيرا - أصيلا- عزيزاً - كما في سورة الأحزاب - ومغزي كل ذلك أن مطالب الفاصلة تختلف إختلافا تاما عن شروط القافية .

ومع ذلك تأتي الفاصلة في نهاية الآية لتحقق للنص جانباً جماليا لاتخطئه الأذن لأننا مهما يكن من أمر نحس أنها تضفي علي النص قيما صوتية منتظمة فينقسم سياق النص بها إلي واحدات أدائية تعد معالم

للوقف والابتداء وتتضافر مع الإيقاع الذي سبق شرحه فينشأ من تضافرها أثر جمالي يشبه ما يخلفه وزن الشعر وقافيته ولكنه يمتاز عن ذلك بالحرية من كل قيد مما تفرضه الصنعة علي الوزن والقافية . ولأمر ما كان الوقف علي رؤوس الآي مسنونا إلا أن يفسد به المعني - ذلك أن الوصول بالقراءة إلي فاصلة الآية يتفق في الغالب من الحالات مع كمية النفس لدي القارىء فيقف القاريء عنده ليتزود بزاد نفس جديد ويحس القاريء مع بلوغ الفاصلة بأنه قد إنتهي من إحدي مراحل طريق متواصل تحف به روائق الإيقاع وروائع المعني من كل جانب .

وللفاصلة علاقة بالآية التي اختتمت بها قد تكون علي إحدى صورتين:

١ - أن تكون الفاصلة جزءاً من سياق الآية لايتجزأ فلا يتصور معني الآية إلا به كما في قوله تعالي في سورة الأعراف :

«واذْكُرُوا إذْ جعلكمْ خُلفاء مِن بعْد عادٍ وبوأكمْ في الأرْض تتخذُون من سُهُولها قُصُورًا وتنْحتُون الْجبال بيُوتًا فاذْكُرُوا آلاء اللّه ولا تعْثوْا في الأرْض مفْسدين ﴿٧٤﴾ قال الْملأُ الّذين اسْتكْبرُوا من قوْمه للّذين اسْتُضْعفُوا لمنْ آمن منْهُمْ أتعْلمُون أنّ صالحًا مُرْسلٌ مّن رّبّه قالُوا إنّا بما أُرْسل به مُؤْمنُون ﴿٧٥﴾ قال الّذين اسْتكْبرُوا إنّا بالّذي آمنتُم به كافرُون ﴿٧٦﴾ فعقرُوا النّاقة وعتوْا عنْ أمْر ربّهمْ وقالُوا يا صالحُ ائْتنا بما تعدُنا إن كُنت من الْمُرْسلين ﴿٧٧﴾ فأخذتْهُمُ الرّجْفةُ فأصْبحُوا في دارهمْ جاثمين ﴿٧٨﴾ فتولّى عنْهُمْ وقال يا قوْمِ لقدْ أبْلغْتُكُمْ رسالة ربّي ونصحْتُ لكُمْ ولكن لاّ تُحبُّون النّاصحين» (الأعراف ٧٤ - ٧٩) فكل آية تنتهي بجملة هي جزء من سياق ما قبلها شديد الارتباط به نحويا ودلاليا .

٢ - وقد تأتي الفاصلة بعد تمام المعني تذييلا للآية أو تعقيبا علي محتواها كما في قوله تعالي في سورة آل عمران :

«ولقدْ صدقكُمُ اللّهُ وعْدهُ إذْ تحُسُّونهُم بإذْنه حتّىٰ إذا فشلْتُمْ وتنازعْتُمْ في الأمْر وعصيْتُم مّنْ بعْد ما أراكُم مّا تُحبُّون منكُم مّن يُريدُ الدُّنْيا ومنكُم مّن يُريدُ الآخرة ثُمّ

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» فقوله تعالي «والله نو فضل علي المؤمنين» وقوله «والله خبير بما تعملون» ثم قوله «والله عليم بذات الصدور» وكذلك «إن الله غفور رحيم» إنما جاء بعد تمام المعني فكان تذييلا للآية أكسبها جمالا علي جمال أسلوبها وحدد معالم كل آية وميزها عن الأخري وأبرز مالها من مضمون خاص . والملاحظ أن هناك إنسجاما وتآلفاً بين مضمون الآية ومضمون التذييل . فليس في القرآن آية يدعو مضمونها إلي العقاب تنتهي بتذييل من قبيل الرحمة وليس فيه من آية تتضمن رضوانا من الله تنتهي بتذييل يهدد بشدة العقاب وهلم جرا .

والفاصلة قيمة صوتية تراعي في كثير من آيات القرآن وربما أدت رعايتها إلي تقديم عنصر في الجملة عن موقعة أو تأخيره عنه . ولقد يتكلم البلاغيون في أغراض التقديم والتأخير فيوردون من أسباب ذلك أمورا تدور حول رعاية المعني وربما جعلوا الاهتمام بمدلول اللفظ عنوانا يندرج تحته الكثير هذه الأمور . وهذا اتجاه لا اعتراض عليه أما في القرآن فيضاف إلي ذلك ما يعرف باسم «رعاية الفاصلة» قارن من ذلك ما يلي :

١ - وينفقون مما رزقناهم   في مقابل   «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» (البقرة ٣).

٢ – وهم يوقنون بالآخرة في مقابل «وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» (البقرة ٤).

٣ – وكانوا يظلمون أنفسهم في مقابل «وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ» (الأعراف ١٧٧).

٤ – «فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً» (النساء ٤٦ ، ١٥٥) ، «فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ» (البقرة ٨٨).

بل إن التقديم والتأخير قد يتناول التتابع التاريخي للأحداث لمناسبة الفاصلة كما في قوله تعالي : «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا» (النساء١٦٣ – ١٦٤) فلقد تقدم عيسي في الآية علي هارون وتقدم سليمان علي داود من أجل الفاصلة (زبوراً) جاء موسي آخر الأنبياء ذكرا من أجل الفاصلة أيضاً (تكليما) حتي عند التفضيل الذي يتسم بسمة الطباق نجد «فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا» (الأحزاب ٣٦) بدل «وفريقاً أسرتم» وكذلك نجده «فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ» (البقرة ٨٧) . بدل «وفريقا قتلتم» ومن إخضاع الطباق للفاصلة أيضا قوله تعالي : «قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» (النمل ٢٧) بدل «أم كذبت» وقوله «قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ»(النمل٤١) فكل ذلك من قبيل رعاية الفاصلة من حيث هي قيمة صوتية ذات وظيفة جمالية .

والمعروف أن اللغة العربية أوسع من النحو لأن النحو ينظم المطرد ويقصر عن غير المطرد وكلاهما من اللغة . ومن قواعد النحاة أنفسهم قاعدة أصولية تقول : «الشذوذ لاينافي الفصاحة» ومن هنا تكون اللغة الفصيحة أرحب من القواعد وحدودها . ولقد نزل القرآن بلسان عربي مبين لا بنحو عربي مبين فاتسم بسعة اللغة لابضيق القواعد النحوية فهو يهيمن علي اللغة

كلها ما اطرد منها وما لم يطرد . أضف إلي ذلك أن القراءة سنة متبعة لأن القرآن مروي عن النبي صلي الله عليه وسلم الذي تلقاه عن جبريل عليه السلام وقد رواه الصحابة والتابعون ومن تبعهم بالتواتر جمعا عن جمع وأن النص المروي ربما تحدي الأصل بالعدول أو تحدي القاعدة بالترخص وقد يكون هذا العدول عن الأصل أو ذاك الترخص في القرينة لرعاية الفاصلة .

..ن المقرر في النحو أن الألف المطلقة تنوب عن الفتحة والتنوين عند ... م يخلو الاسم الذي ينتهي بها من أداة التعريف (ال) لأن (ال) لا ..جتمع مع التنوين وقد نابت الألف عنه ولكن القرآن يجمع بينهما رعاية للفاصلة كما في قوله تعالي :

١ - «وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» (الأحزاب ١٠) .

٢ - « يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ» (الأحزاب ٦٦) .

٣ - « إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ » (الأحزاب ٦٧) .

ولقد تتوالي الفاصلة في آيات متتابعة ومعناها مع تواليها واحد أوشبه متحد وإنما جاء التوالي لغرض لولا رعايته لأجزأت عن ذلك فاصلة واحدة . ..ن ذلك أن المؤمنين لايؤمنون إلا مع رسوخ اليقين بما آمنوا به ولابد أن يكون هذا اليقين نتيجة تدبر ودلالة عقلية ومن ثم فهم يعقلون . أي أن «المؤمنين» «يوقنون» و«يعقلون» و« يؤمنون» . وهذه الألفاظ الأربع تتوالي في موقع الفاصلة في قوله تعالي : « إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ » (الجاثية ٣ - ٦) ففي هذه الايات القرآنية ذكر بعض الآيات الكونية التي تدر..ها الحواس . ولكن الإدراك الحسي ليس إلا وسيلة موصلة إلي الحكم العقلي المبني علـ .اليقين والإيمان وقد عدت الآيات القرآنية من ذلك ما يلي :

١ - ما في السموات والأرض من الآيات بصورة عامة وهي تتطلب

الإيمان أو تمنحه .

٢ - خلق الإنسان والحيوان (الدواب) وهي توصل إلي اليقين .

٣ - اختلاف الليل والنهار (أي تواليهما الواحد بعد الآخر) والمطر الذي يحيي الأرض بعد موتها والرياح التي تهب حينا وتسكن حيناً آخر وكل ذلك مدعاة للنظر العقلي ومن ثم كان موضوعا للعلوم الطبيعية وأخيرا يأتي سؤال يقول : هذه هي الآيات الصادقة فأي شيء غيرها يوصل إلي الإيمان وهذا نوع من الاجمال ثم التفضيل لأن رقم ١ يشتمل علي ٢ ، ٣ فجعله أولا وجعله موصلا للإيمان ثم سأل عن آخر أي شيء غيره يوصل للإيمان»؟ وبين الإيمان في الآية الأولي والإيمان في الآية الأخيرة جاءت عناصره من يقين وعقل (أي نظر عقلي) .

إن بعض الفواصل القرآنية يأتي قبل أن تستكمل الجملة عناصرها النحوية رعاية للطابع النغمي وحفاظا عليه أن يتخافت بسبب طول الكلام وليكون أداء الفاصلة غرضها أبلغ وأتم . انظر علي سبيل المثال إلي قوله تعالي في فاتحة الكتاب : «الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مالك يَوْمِ الدِّين » (الفاتحة ٢ - ٤) أو إلي قوله جل شأنه في سورة البقرة : «ذلك الْكِتَابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» (البقرة ٢ - ٣) أو قوله تعالي « وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي» (طه ٢٩ - ٣٠) إذ تقدم المفعول الثاني «وزيرا» وتأخر المفعول الأول «هارون» وأصبح «هارون أخي» آية مستقلة والتقدير : وأجعل هارون أخي وزيراً لي من أهلي أو قوله تعالي «الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» (الروم ١ - ٥) إذ فصل بين الجار والمجرور والمتعلق مراراً أو قوله « أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ» (الصافات ٤١ - ٤٤) أوقوله تعالي : «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾

فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ» (الذرايات ١ - ٥) واقرأ إن شئت سورة الرحمن أوسورة الواقعة أو سور الجزءين الأخيرين من القرآن وستجد هذه الظاهرة شائعة . ومعني هذا أن الفاصلة القرآنية لاتدل بالضرورة علي تمام المعني ومن ثم تصبح وظيفتها في القرآن غير نحوية ولا دلالية . فإذا لم يكن للفاصلة غرض نحوي أو دلالي فماذا يكون الغرض منها ؟ أغلب الظن أن الغرض منها جمالي يرتبط أشد الارتباط بموسيقي النص القرآني .

من طرق القرآن(*)

القرآن لاتنقضي عجائبه سواء من حيث الشكل والمضمون ، والقرآن نص معجز سواء من حيث الشكل والمضمون . ولقد تصدي العلماء قديماً وحديثا للكشف عن ذخائر القرآن وفرائد جواهره ومعارج تفوقه فجاءوا من ذلك بالكثير ولكنهم تركوا من ذلك أكثر من الكثير ينتظر من الغواصين طول الأنفاس ومن الكشافين قوة الأضواء ومن الباحثين نفوذ البصيرة . ولم يعد البحث عن دور الكتاب الكريم وقفا علي العرب ولاعلي المسلمين ، فلقد نري في أيامنا هذه ونسمع المنصفين من الغربيين يكشفون عن صدق المضمون القرآني في أمور تعتبر من دقائق العلم الحديث وآخر من تصدي لذلك منهم الباحث الفرنسي موريس بوكاي الذي أشاد بما راعه من التطابق بين مضمون النص القرآني وبين الثابت من حقائق العلم الحديث سواء في علم الأجنة أو في الفلك أو في غيرهما من العلوم .

وأما من حيث الشكل فقد علمنا أن القرآن تحدي العرب أن يأتوا بسورة من مثله وأن يدعوا من استطاعوا من دون الله فلم تستطع روائع الخطباء ولاسجع الكيان ولاشياطين الشعر أن تدنو من القرآن لابسبب الصرفة كما زعم بعض المعتزلة (فنحن نعلم أن بعض الناس حاول أن يأتي بمثل القرآن) ولكن بسبب إمتناع النص القرآني نفسه علي من يحاول له محاكاة وتقليدا . ولقد نشأت العلوم اللغوية في التراث العربي في رحاب القرآن وللإعانة علي حسن فهمه ولكنها بنت ملاحظاتها علي كلام العرب ولم تجر استقراءها علي القرآن نفسه ، فلما اكتملت في أيدي العلماء حقائق تلك العلوم وقواعدها عرضوها علي النص القرآني فانسجمت مع بعضه

(*) بحث أعد بمناسبة مؤتمر مجمع اللغة العربية المنعقد في ٢٢ فبراير ١٩٨٢وبمناسبة العيد الخمسيني لإنشاء المجمع

وقصرت دون بلوغ البعض الآخر ، وظل القرآن فوق النحو وفوق البلاغة وفوق غيرهما من علوم العربية وأن أعانت هذه العلوم علي فهمه . ظل القرآن فوق هذه العلوم يتحدي قواعدها وحقائقها كما تحدي الفصحاء من مقاويل العرب من قبل فأصبح التحدي القرآني منتصراً في مجال النظرية والتطبيق علي سواء .

ومن المعروف أن السياق اللغوي يعتمد في فهمه علي الخضوع لأنماط تركيبية معينة ومن هنا جاءت الكلم أنواعا لكل منها موقع خاص في الكلام ولكل موقع إعراب يناسبه ولكل كلمة اختصاص بما يدخل عليها أو امتناع علي ما يتنافي معها ولابد لأجزاء الجملة من روابط تربط بعضها ببعض وهلم جرا . فلايجوز أن تأتي الكلم متجاورة كيفما اتفق لها التجاور فيقال مثلا (علي جلس الكرسي الرجل) إذ لابد من إخضاع توالي الكلمات لشروط النمط التركيبي فيقال : «جلس الرجل علي الكرسي» . والمعروف أن لكل لغة إنسانية مجموعة من الأنماط قلت أو كثرت وترتبط الإفادة بهذه الأنماط فإذا عرفنا أن نمط الجملة هو «الوضع» الذي تكون عليه من حيث الشروط النحوية التركيبية المتقدم ذكرها أدركنا مايقصده النحاة من قولهم : «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » أي المفيد بحكم النمط المحدد نحويا .

والقرآن فوق هذه الأنماط يعلو عليها ويتحداها ويصل إلي المعني فيبلغ غاية الإفادة ولو بدون «الوضع» . ولأمر ما قال القراء : «القراءة سنة متبعة» وقصدوا بذلك أنها لايجوز إخضاعها «للوضع» النحوي بما يشتمل عليه من قواعد وقيود وشروط . ولعل هذا يعد جانباً مُهِمًا من جوانب الاعجاز القرآني أفاض القدماء في شرحه ولكنهم لم يتهتدوا إلي عدة في وجوه الاعجاز . وسنحاول فيما يلي أن نلقي بنصيبنا من الضوء علي بعض الطرق التي انفرد بها القرآن في صياغة الجملة العربية دون التزام منه «بالوضع» النمطي الذي اشترطه النحاة للوصول إلي الإفادة ، كما نحاول كذلك أن نأتي بظواهر أسلوبية معينة تتجاوز العلاقات النحوية إلي الوسائل البلاغية وأرجو أن نتمكن عند النظر في هذه الطرق وتلك الظواهر من رؤية كيفية امتياز الشكل القرآني بميزاته الخاصة ، وسيكون كلامنا عن البنية

والتركيب والأسلوب .

أولا . البنية :

الكلمة العربية من حيث بنيتها نوعان : تركيبية ومعجمية ، فأما التركيبية فإنها تتناقض مع التعريف الذي وصفه النحاة للكلمة إذ قالوا «الكلمة مادل علي معني مفرد» لأن الكلمة التركيبية - كما يدل اسمها - لامعني لها إلا في السياق . فإذا دلت «في» علي الظرفية فقد عبرت عن علاقة بين كلمتين في السياق إحداهما ظرف والأخري مظروف ، وإذا عبرت الواو عن العطف فمعناها هو العلاقة بين المعطوف عليه والمعطوف ، ومعني «إلا» علاقة بين المستثني منه والمستثني ومعني «إن» الشرطية علاقة ما بين الشرط والجواب ومن الكلمات التركيبية الحروف والضمائر والموصلات والإشارات وجوامد الظروف الخ ، وواضح أن هذه المعاني هي وظائف وليست من قبيل المعاني المفردة . لأن المعاني المفردة هي معاني الكلمة المعجمية ، إذ يدل لفظ «قلم» مثلا علي شيء مادي وليس علي وظيفة نحوية . وللقرآن طريقة خاصة في التصرف في بنية هذين النوعين من الكلمات أما بالقلب أو التعديل أو الزيادة أو الحذف أو الفصل أو إهدار الاختصاص ونحو ذلك . وفيما يلي شواهد علي هذه الطريقة :

أ - القلب :

قال تعالي : «ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم» والمعروف أن قواعد النحو تضع الضمير بين «ها» التنبيه واسم الاشارة فتقول : هأنذا وها أنت ذا وهأنتم أولاء . وفي نص القرآن ذاته : «هأنتم أولاء تحبونهم» (آل عمران ١١٩) وكذلك «هأنتم أولاء جادلتم فيما لكم به علم» (النساء ١٠٩) ولكن التركيب الأول حدث فيه قلب للرتبة فتقدم الضمير علي «ها» التنبيه فلصقت «ها» باسم الاشارة أولاء».

ب - التعديل :

قد يعمد القرآن إلي تعديل صورة الكلمة فيضع بكه في مكان مكة وميكال بدل ميكائيل وسينين لسيناء وإلياسين لإلياس وكبَارًا لكبير وعُجابًا

لعجيب ويَهدِّي ليهتدي ويَخصِّمُون ليختصمون وكِذَّابًا لتكذيب وهلم جرا . وقد يكون بعض ذلك لمراعاة الفاصلة ولكن بعضه آخر لا تفسير له إلا أن القرآن فوق اللغة .

ثانياً : التركيب :

وفيه الزيادة والحذف والفصل والاختصاص ونحوها :

فحوي القول بالزيادة أن النحويين حين حددوا معالم «الوضع» (أي النمط) حدوده علي أساس عناصر معينة ليس منها هذا الذي يعرف بأنه «زائد» وبذلك يصبح معني لفظ «زائد» أنَّ هذا ليس من جملة العناصر التي يشتمل عليها «الوضع» الذي ربط النحويون به الإفادة . ولكن البلاغيين يجعلون لهذا الزائد «وظيفة» تقوية المعني إذ يقولون : «زيادة المبني تدل علي زيادة المعني» . فالزائد عند النحويين مؤكِّد عند البلاغيين أي أن «ما زيد بقائم» هي أوكد من «مازيد قائم» ولقد حصر النحويون وعرف البلاغيون مواطن الزيادة وحددوا أماكنها وشروطها حتي كادوا يخلقون لها أنماطا فرعية . ولكن القرآن فوق كل ذلك إذ يجعل لنفسه حرية التصرف في الزيادة علي نحو لايعترف بأنماط النحويين وحددوهم . ولك أن تتأمل طرق الزيادة فيما يلي :

١ - «فبما رحمة من الله لنت لهم»(آل عمران ١٥٩)

٢ - «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم»(المائدة ١٣) .

٣ - « أتتركون فيما ههنا آمنين»(الشعراء ١٤٦) ،

وفي هذه الشواهد الثلاثة زيادة «ما» بعد حرف الجر بينه وبين مجروره وهي طريقة قرآنية . وربما كانت الزيادة في الشاهد الثالث مشتملة علي حرف الجر بالإضافة إلي «ما» .

٤ - « ولاتستوي الحسنة ولا السيئة»(فصلت ٣٤) .

٥ - «وما يستوي الأعمي والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات»(فاطر ١٩) .

٦ - «لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة» (القيامة ١-٢).

ومن الواضح أن الزائد في هذه الشواهد لفظ «لا» الذي قبل السيئة والنور والحرور والأموات وأقسم وهذه زيادة لم توضح لها أنماط نحوية ولكن القرآن فوق النحو لأنه سنة متبعة .

٧ - «وكذلك نري إبرهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين»(الأنعام ٧٥) .

٨ - «وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين»(الأنعام ٥٥).

٩ - «وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القري ومن حولها ...» .

١٠ - «وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست»(الأنعام ١٠٥).

وزيادة الواو واضحة قبل لام التعليل في كل هذه الشواهد وليس هذا الموضع مما عده النحاة من مواضع الزيادة ولكن القرآن له طرقه التي لم يتسع لها النحو .

د - زيادة الضمير :

١١ - «وأسروا النجوي الذين ظلموا»(الأبياء ٣) .

١٢ - « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون»(البقرة ٤).

١٣ - « أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم بالآخرة هم الأخسرون»(النمل ٥) .

وقد نسب النحاة أشباه الشاهد الأول إلي لغة بعض القبائل (فقعس ودبير) ولكن الواضح أن الواو هنا زائدة وكذلك أحد الضميرين في كل من الشاهدين الآخرين ولاتبويب لذلك في النحو .

هـ - حذف الحرف :

وفحوي القول بالحذف أن عنصرا من عناصر التركيب وجب ذكره

بحسب «الوضع» أو القيد أو القاعدة ولكنه لم يذكر في الاستعمال ومن ثم قيل إنه محذوف . وشرط حذفه وجود ما يدل عليه ، لأن القاعدة المنهجية العامة تقول : « لاحذف إلا بدليل » ، ولأن الحذف بلا دليل يؤدي إلي اللبس. وهناك حروف أوجب النحو العربي ذكرها في مواضعها منها :

أ - همزة الاستفهام وقد أوجب النحو ذكرها لأن التراث العربي تراث ينتقل بالكتابة من جيل إلي جيل ، والكتابة العربية خالية من علامات الترقيم ومن ثم تخلو من رمز يدل علي الاستفهام ، ولهذا جعلت الهمزة في أول الجملة الاستفهامية في مقام علامة الاستفهام التي توجد في آخر الجملة المكتوبة .

ب - الفاء الواقعة في جواب الشرط عند مالا يصلح الجواب أن يكون شرطا لأن معظم صور الجملة في هذه الحالة ملبسة ، والقاعدة المنهجية التي عبر عنها ابن مالك تقول : «وإن بشكل خفيف لبس يجتنب» انظر مثلا إلي جملة «من عمل صالحا فلنفسه» وتصور حذف الفاء فستري عندئذ أن الجار والمجرور يصلح للنعت كذلك.

جـ - «قد» قبل الماضي في جملة الحال لمنع التباس معني الواو التي قبل قد بالعطف في نحو : «قال وقد رفع صوته : كيف حالك؟.» فحذف «قد» هنا يؤدي إلي اللبس .

د - حرف الجر يتكرر عند العطف علي ماجر به منعا لالتباس العطف بمعني آخر كالقسم في حالتي الباء والواو مثلا ، وبخاصة إذا كان المكان غير صالح لنزع الخافض .

ولكن القرآن يحذف ولايلبس . وهذا مما أختص به القرآن . انظر مثلا الشواهد الآتية لحذف الحرف (وستري الحرف المحذوف مثبتا بين قوسين في سياق الشاهد) :

١ - «ولا علي الذين إذا ما أتوك لتحملهم (فـ) قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا ..» (التوبة ٩٢) .

أو «ولا علي الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه (فـ) تولوا ،،،»(التوبة ٩٢)

ففاء العطف محذوفة في أحد الموضعين .

٢ - «قال (أ) ومن ذريتي قال لاينال عبدي الظالمين»(البقرة ١٢٤) .

٣ - « (أ) وتلك نعمة تمنيا علي أن عبدت بني إسرائيل» .

٤ - «(أ) مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفي ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كـ (مثل) من هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم»(محمد ١٥) .

٥ - « ان ربك هو أعلم (ب) من ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» (النحل ١٢٥) .

٦ - «قل ربي أعلم (ب) من جاء بالهدي و(ب) من هو في ضلال مبين» (القصص ٨٥) .

٧ - «قالوا ياموسي أجعل لنا إلها كما (أن) لهم آلهة»(الأعراف ١٣٨)

٨ - «لاتركضوا وأرجعوا إلي ما أترفتم فيه و(إلي) مساكنكم»(الأنبياء ١٣) .

٩ - «وآخرون مرجون لأمر الله أما «أن» يعذبهم وأما (أن) يتوب عليهم»(التوبة ١٠٩) .

١٠ - «قالوا و (قد) أقبلوا عليهم ماذا تفقدون»(يوسف ٧١).

و - حذف الكلمة : والمقصود بالكلمة أن تكون مبتدأ أو خبر أو عاملا أو متعلقا للظرف والمجرور أو موصوف أو صفة أو غير ذلك . وكما وضعنا الحرف المحذوف بين قوسين عندما عرضنا الشواهد علي حذف الحرف سنضع الكلمة المحذوفة بين قوسين في شواهد حذف الكلمة علي نحو مايلي :

١ - (سننّا) سنة من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تبديلا» (الإسراء ٧٧) .

٢ - «كهيعص (هذا) ذكر رحمة ربك عبده زكريا»(مريم ١) .

٣ - «الله يعلم ما تحمل كل أنثي وماتغيض الأرحام وما تزداد (هو) عالم الغيب والشهادة ...» ((الرعد ٨) .

٤ - «ذلك عيسي بن مريم (أقول) قول الحق الذي فيه يمترون»(مريم ٣٤) .

٥ - «(نزلناه) تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلي»(طه ٤) .

٦ - «واضمم يدك إلي جناحك تخرج بيضاء من غير سوء (نجعلها) آية أخري »(طه ٢٢) .

٧ - «وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمرمر السحاب (تري) صنع الله الذي أتقن كل شيء»(النمل ٨٨) .

٨ - «(بلدتكم) بلدة طيبة و (ربكم) رب غفور»(سبأ ١٥) .

٩ - «أ (تستكبرون) استكبارا في الأرض و (تمكرون) مكر السيء»(فاطر ٤٣) .

١٠ - «فمن عفي له من أخيه شيء فـ (سبيله) اتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان»(البقرة ١٧٨) .

١١ - «فمن كان منكم مريضاً أو علي سفر ف (حكمه) صيام عدة من أيام آخر» (البقرة ١٨٤) .

١٢ - وأن طلقتوهن من قبل أن تمسوهن فـ (فريضتهن) نصف ما فرضتم»(البقرة ٢٢٧) .

١٣ - « كذلك يضرب الله (مثل) الحق والباطل»(الرعد ١٧) .

١٤ - «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و(آيات) آخر متشابهات»(آل عمران ٧) .

١٥ - «فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا (غلاما) صالحا لنكونن من الشاكرين»(الأعراف ١٨٩) .

ز - حذف شطر الجملة :

وهنا أيضا يلزم أن يكون هناك دليل للحذف ولكن القرآن يتحدي هذه القاعدة أحيانا وهو مايزال بمنأي عن اللبس لسهولة استخراج المحذوف بالقرائن الحالية حين تعز القرائن المقالية . وفيما يلي طائفة من الجمل التي حذف شطرها نجعلها شواهد علي هذه الظاهرة :

١ - «(أن) الذين يتخذون الكافرين أوليا من دون المؤمنين (يخدعون أنفسهم) أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا»(النساء ١٣٩) .

٢ - «والذين آمنوا وعملوا الصالحات (سنخفف عنهم) لا نكلف نفسا إلا وسعها »(الأعراف ٤٢) .

٣ - «حتي إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه (غفر لهم) ثم تاب عليهم ليتوبوا» (التوبة ١١٨) .

٤ - «إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم (لن يضروه شيئا) وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (فصلت ٤١) .

هـ - «أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة (ناج من العذاب) وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون» (الزمر ٢٤) .

٦ - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو علي نور من ربه (خير أمن قسا قلبه) فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله »(الزمر ٢٢) .

٧ - «(أذلك الكافر آمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه»(الزمر ٩) .

٨ - أو آباؤنا الأولون (مبعوثون) »(الصافات ١٧) .

٩ - «حتي إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم (تباينتم) منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة»(آل عمران ١٥٢) .

١٠ - «فإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية (فافعل) ولوشاء الله لجمعهم علي الهدي فلا تكونن من الجاهلين»(الأنعام ٣٥) .

١١ - «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيوعتينا الله من فضله ورسوله إنا إلي الله راغبون (لكان خيرا لهم) إنما الصدقات للفقراء والمساكين ..» (التوبة ٦٠) .

١٢ - «ولولا أن تصيبهم بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فتتبع آياتك ونكون من المؤمنين (لأصبناهم بعذاب) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسي ...»(القصص ٤٧) .

١٣ - «وإذا قيل لهم أتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (أعرضوا) وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين» (يس ٤٥) .

١٤ - «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم (ما كففنا أيديكم عنهم) ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما» (الفتح ٢٥) .

١٥ - «أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما (أئنا لمبعوثون) ذلك رجع بعيد» (ق ٢) .

١٦ - «ولولا فضل الله عليكم وبرحمته وأن الله تواب رحيم (لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه خيراً لكم بل هو شر لكم ... ولو لا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » (النور ١٠) .

١٧ - «ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم (مازكي منكم من أحد أبدا) يأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع

خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكي منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم» (النور ٢٠ - ٢١)

ح - حذف كلام يقتضيه المعني :

والمقصود بالكلام الذي يقتضيه المعني كلام لايمكن أن يتحل ما بعده بما قبله إلا بواسطة تقديره لأن مضمونه يعد تمهيدا منطقيا لما يأتي بعده بحيث لايستغني عنه فهم المعني وأن استغني سرد الأحداث وفي القصص. ولو أننا وازنا بين المحذوف من النص وبين نظيره في الأدب المسرحي العادي لوجدنا هذا المقابل في المسرحية قولا أو حركة معينة أو عملا بعينه يراه الشاهد فيستغني به عن الكلام . ولكن النص القرآني يستغني عن المحذوف دون الاستعانة بما ينوب عنه ومع دلك يظل مفهوما فهما تاما . ولنا أن ننظر فيما يلي :

١ - «ولو تري إذ يتوفي الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم و(يقولون لهم) ذوقوا عذاب الحريق..» (الأنفال ٥٠) .

٢ - «يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم (يقال لهم) هذا ما كنزتم لأنفسكم فذقوا ما كنتم تكنزون» (التوبة ٣٥) .

٣ - «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلي بعض (وتساءلوا) هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ...» (التوبة ١٢٧) .

٤ - «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين (وعادت إلي مراودته فأبي عليها و) قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه...» (يوسف ٣٢) .

٥ - « ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتي حين (فأدخلوه السجن) ودخل معه السجن فتيان (رأي كل منهما في المنام رؤيا قصها علي يوسف) قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل

فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه»(يوسف ٣٥) .

٦ - «وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون (إلي يوسف فأرسلوه إليه فلما أتاه قال) يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان..»(يوسف ٤٥) .

٧ - «ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (وعاد الفتي إلي الملك فأخبره بما قال يوسف فعجب الملك لما سمع) وقال الملك أئتوني به (فأرسلوا إليه رسولا) فلما جاءه الرسول قال أرجع إلي ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إنّ زبي بكيدهن عليم (فدعا الملك بهن فأحضرن أمامه) قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف ...» (يوسف ٤٩).

٨ - وقال الملك أئتوني به استخلصه لنفسي (فأتوه به فأقبل عليه يكلمه ويسمع منه) فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال إجعلني علي خزائن الأرض إني حفيظ عليم (فأجابه الملك إلي ماطلب) وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ...» (يوسف ٥٠) .

٩ - «أرجعوا إلي أبيكم فقولوا يا أبانا إن إبنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل (أهل) القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون (فلما رجعوا إليه وأخبروه بذلك) قال (ليس الأمر كما زعتم) بل سولت لكم أنفسكم أمرا ...» (يوسف ٨١) .

١٠ - يابني إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولاتيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون (فذهبوا يتحسسون من أخويهم حتي إذا بلغوا قصر العزيز استأذنوا فأذن لهم) فلما دخلوا عليه قالوا ..»(يوسف ٨٧) .

١١ - «وعرضوا علي ربك صفا (فقال لهم) لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة» (الكهف ٤٨) .

١٢ - «فأجاءها المخاض إلي جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (ثم ولدته فنظرت فإذا هو غلام فلم يخفف ذلك من

حزنها) فناداها من تحتها ألا تحزني ...»(مريم ٢٣) .

١٣ - «قلنا لاتخف إنك أنت الأعلي وألق مافي يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث أتي ٠(فاطمـ قلبه وألقي بما في يمينه وألقوا ما في أيمانكم فابتلعت عصاه حبالهم وعصيهم) فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسي»(طه ٦٨) .

١٤ - «لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين (فلما حضر الهدهد دنا من سليمان) فمكث غير بعيد...» (النمل ٢١) .

١٥ - «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات (غير السموات) وبرزوا لله الواحد القهار»(إبراهيم ٤٨) .

١٦ - «وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد يقولان) لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد وقال قرينة هذا ما لدي عتيد (فيقال للسائق والشهيد) ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ...» (ق٢١).

ط - الفصل : والمقصود به أحد أمرين : الفصل بين أمرين يختص أحدهما بالآخر والفصل بين الجمل المتتابعة مع إمكان وصلها بعطف أو نحوه فمن ذلك الفصل بين الموصوف وصفته وقد وضع الفاصل بين قوسين نحو :

١ - «يسبح لله (ما في السموات وما في الأرض) الملك القدوس العزيز الحكيم»(الجمعة ١) .

٢ - «يوم يأتي أمر ربك لاينفع نفسا (إيمانها) لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» (الأنعام ١٥٨) .

٣ - «وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلي وربي (لتأتينكم) عالم الغيب»(سبأ ٣) .

٤ - «قالت رسلهم أفي الله (شك) فاطر السموات والأرض...» (إبراهيم ١٠) .

٥ - «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض (ومغاربها) التي باركنا فيها ...»(الأعراف ٣٧) .

أو بين المعطوف وماعطف عليه نحو:

٦ - «واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين (إحسانا) وبذي القربي ...»(النساء ٣٦) .

٧ - «إذ الأغلال (في أعناقهم) والسلاسل يسحبون ...»(غافر ٧١) .

٨ - «يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلي طعام غير ناظرين إناء (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعتم فانتشروا) ولامستأنسين لحديث»(الأحزاب ٥٣) .

أو بين الفعل ومفعوله بأجنبي نحو :

٩ - «أفلم يروا (كم أهلكنا قبلهم من القرون) أنهم إليهم لايرجعون» (يس ٣١) .

١٠ - «قال آتوني (أفرغ عليه) قطرا» (الكهف ٩٧) .

أوبين الأداة ومدخولها نحو :

١١ - «فلولا (إن كنتم غير مدينين) ترجعونها إن كنتم صادقين» (الواقعة ٨٦) .

ي - الاختصاص وهو نوع من التضام النحوي :

وهذا النوع من الترخص القرآني في الاختصاص من أوضح الأدلة علي أن القرآن أوسع من النحو وأن النحاة حين ألقوا بثقلهم علي الشعر العربي فجعلوه مجال استقرائهم ومعين شواهدهم إنما اعتمدوا علي شكل من أشكال التعبير مكبل في أغلال الوزن والقافية فلابد أن يحكم الوزن علي الجملة الشعرية بالإيجاز وعلي الكلمة الشعرية بقيود فنية متعددة ومن ثم لم يكن للشعر العربي ما للقرآن من الحرية في مجال التعبير وتلك حرية لايحد من انطلاقها قيد حتي ولو كان الفاصلة لأن الفاصلة القرآنية لاتتسم

بالإلتزام علي نحو ما نتسم القافية الشعرية . فإذا كان ذلك كذلك فلنا أن ننظر في الشواهد التالية لنري مظهر الحرية والتحدي ثم البعد عن اللبس في بناء الجملة القرآنية :

١ - المعروف أن «لو» تدخل علي الفعل الماضي مباشرة أو لكونه خبرا لأنَ وأَنَّ جوابها إذا احتاج إلي رابط اكتفي باللام ومع ذلك نجد في القرآن «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذًا لآمسكتم خشية الإنفاق» فدخلت «لو» علي الضمير واشتمل جوابها علي «إذًا».

٢ - «والمقرر في جواب لو أن يكون فعلا ماضيا كذلك ولكننا نجد في القرآن : «ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير» فنري الجواب جملة إسمية .

٣ - من المعروف أيضاً أن الموصولات فيها من العموم ما يأذن لبعضها (مثل مَنْ ومَا) أن ينقل من الموصولية إلي معني الشرط فيتسعمل أداة للشرط وتلزم الفاء في جوابه إذا لم يصلح هذا الجواب أن يكون شرطا. أما مالا يتحول إلي الشرطية من الموصولات فإنه إذا وقع مبتدأ فكانت له الصدارة في الجملة اكتسبت من معني العموم وموقع الصدارة شبها بِمَنْ ومَا أن بنقل من الموصولية إلي معني الشرط فيستعمل أداة للشرط وتلزم الفاء في جوابه إذا لم يصلح هذا الجواب أن يكون شرطي أما ما لايتحول إلي الشرطية من الموصولات فإنه إذا وقع مبتدأ فكانت له الصدارة في الجملة اكتسب من معني العموم وموقع الصدارة شبها بمن وما اللتين انتقلتا إلي الشرطية فصح في خبره أن يقترن بالفاء كما يقترن جواب الشرط . وقد قدم النحاة لنا من ذلك مثالايقول : «الذي يأتيني فله درهم» ولكن القرآن إذ يشتمل علي شواهد من هذا القبيل يضيف إلي هذا التركيب توسعا آخر في مجالين : الأول أنه قد يجعل الموصول إسما لإنَّ ويبقي علي الفاء في الخبر والثاني أنه قد يسحب هذه الخصائص علي «ال» الموصولة فيجعلها كبقية الموصلات الأسمية . ويتضح كل ذلك فيما يلي :

أولا: الفاء في خبر الموصول المبتدأ:

* «والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم» (محمد ٤) .

* «والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم» (محمد ٨) .

ثانيا : الفاء في خبر إن التي اسمها موصول :

* «إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب إليم» (آل عمران ٢١) .

* «إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق» (البروج ١٠) .

ثالثا : الفاء في خبر الوصف المقترن بأل الموصوله :

* «الزانية والزاني فأجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (النور ٢) .

* «والقواعد من النساء اللاتي لايرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة»(النور ٦٠) .

٤ - وفي النحو أن النكرة توصف بالنكرة كما توصف المعرفة بالمعرفة ولكن القرآن يتحدي قواعد النحاة في الشواهد الآتية التي وصفت فيها النكرة بالاسم الموصول وهو معرفة :

* « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلها آخر»(ق ٢٤) .

* « هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب»(ق ٣٢) .

* « لكيلا تأسوا علي مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ...»(الحديد ٢٣) .

* «ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده»(الهمزة ١).

٥ - عطف المتغايرين:

للعطف في صناعة النحو شروط تأتي من الاعتراف بالمشاركة بين المتعاطفين في الخصائص ومن هنا يعطف الاسم علي الاسم والفعل علي

علي الفعل ثم في نطاق الفعل بعطف الماضي علي الماضي وبعطف الحاضر علي الحاضر وكذلك المستقبل علي المستقبل . هذا في النحو ، أما في القرآن فقد يعطف المتخالفان ويظل المعني مع ذلك واضحا واللبس مأمونا وينكشف الجانب الجمالي في هذا العطف الذي يتحدي النحو والنحاة . من ذلك :

* « أن الله فالقِ الحب والنوي يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي »(الأنعام ٩٥) .

* «يقدم قومه يوم القيامه فأورهم النار» (هود ٩٨) .

* « يوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله »(النمل ٨٧) .

* « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلي بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور »(فاطر ٩) .

٦ - تشويش الرتبة :

ليس في النحو ما يأذن بعكس رتبة محفوظة ولكن القرآن يبدي من الحرية في ترتيب الكلام مالامثيل له في نص عربي آخر ومع ذلك يتضح المعني ويؤمن اللبس ويتحقق الجمال . ومن شواهد هذه الظاهرة مايلي :

* توسط الخبر المقترن بضمير الفصل بين «لكنَّ» واسمها في قوله تعالي :

«لكن هو الله ربي» (الكهف ٣٨) = لكن ربي هو الله »

* تقدم الحال الجملة علي الفعل وصاحب الحال في قوله تعالي :

«ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » (هود ٣٨) = وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ويصنع الفلك .

* تقديم نائب المفعول لأجله علي المفعول به وصفته الظرف وتقديم ذلك كله علي الفعل والفاعل في قوله تعالي :

«أئفكا آلهة دون الله تريدون » (الصافات ٨٦) = أتريدون آلهة دون

الله إفكا.

* تأخير «لا» المؤكدة للنفي عن موضعها من الكلام كما في قوله تعالي: « وما يستوي الأعمي والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ...» (غافر ٥٨) . أي وما يستوي الأعمي والبصير ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء .

* تقديم الجار والمجرور ثم الحال علي المبتدأ صاحب الحال في قوله تعالي :

« فله جزاء الحسني» (الكهف ٨٨) = فالحسني له جزاء».

هذا نموذج مما يوجد في القرآن من الظواهر التركيبية التي يصعب إحصاؤها في المجلدات الطوال فما بالك بعجالة مثل هذا البحث قصد بها أن تكون علي سبيل الإشارة فحسب ، وليس يتسع المقام للكلام في ظواهر أخري كمجيء الخبر جملة إنشائية وجعل الظرف مضافا إليه والترخص في المطابقات ومزج الكلمة في غيرها وتداخل الشرط في الشرط وكذلك الشرط في الخبر وعدم تعليق الجار والمجرور إلي غير ذلك من الظواهر التركيبية التي نمسك عن الكلام فيها طلبا للاختصار والاقتصار .

ثالثاً : الأسلوب :

في تناولي لأسلوب القرآن سيكون من همي أن أكشف عن بعض طرق القرآن للوصول إلي المعني إما بإجراء يتصل بالمعاني الوظيفية لعناصر الكلام وإما بطريقة رد القرآن علي المزاعم التي يزعمها الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين حتي من بعد ماجاءتهم البنية . وسأعرض لشواهد مختصرة علي هذين النوعين علي الترتيب واقتصر عليهما فقط :

١ - التصرف في المعاني الوظيفية :

سأعرض هنا لوسيلة القرآن للتعبير عن التكثير والتأكيد والتفصيل والتضمين والقطع والإشارة ونحو ذلك علي النحو التالي :

التكثير : يستعمل القرآن للتكثير طرقا تشيع في غيره كاستعمال

«كم» نحو :

* « وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون» (الأعراف ٤) .

* « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين» (الأنبياء ١١) .

وقد يستعمل الإبهام وسيلة من وسائل التعبير عن التكثير نحو :

* «جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » (ص ١١) .

ولكن القرآن يستعمل وسيلة أخري يكاد يختص بها وهي «كأين» نحو:

* «وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا ...» (آل عمران ١٤٦) .

* وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية علي عروشها ....» (الحج ٤٥) .

* «وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم» (العنكبوت ٦٠).

التأكيد : وما أكثر طرق التأكيد في القرآن ولكنني سأحصر كلامي في الطرق القرآنية التي لا تكاد تجدها في غير القرآن وأهم ما لفت نظري من ذلك .

* الاستفتاح بفاء استئنافية لا تربط ما بعدها بشئ قبلها في قوله تعالي :

* «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي » (الأنفال ١٧) .

* التأ كيد بالفاء وثم وبتكرار اللفظ جميها في قوله تعالي :

« أولي لك فأولي ثم أولي لك فأولي » (القيامة ٣٤) .

التفصيل : ويلفت النظر من ذلك أن يكون التفصيل إبدالا مما سبق

كما في قوله تعالي :

«حتي إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا» (مريم ٧٥) .

* أو أن يقع التفصيل موقع الحال كما في قوله تعالي :

«هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن»(التغابن ٢) .

التضمين : وفي القرآن من هذه الظاهرة الشئ الكثير ولكنني سأختار ثلاثة شواهد يتضح بها التضمين كما يلي :

* قال تعالي : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمي علي الهدي » (فصلت ١٧) .

ومن الواضح أن حرف الجر «علي» ليس مما يدخل علي الفعل «استحب » ولكن الفعل هنا ضمن معني « فضلوا » فدخل عليه حرف الجر.

* قال تعالي : « وقال الرسول يارب أن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » (الفرقان ٣٠) .

والمعروف أن المفعول الثاني للفعل «اتخذ» إذا جاءوصفا فلابد أن يكون قد نقل إلي الاسميية كأن نقول «اتخذت فلانا حارسا أو صديقا أو خليلا أو ردءا أو وزيرا الخ « أما أن يبقي علي الوصفية فهذا لا يتفق مع إرادة الإفادة. وواضح أن «مهجورا» غير منقول إلي الاسمية لأنه لايدل علي مسمي وإنما هو وصف باق علياالوصفية فلم يبق إلا أن يكون القرآن قد ضمن « اتخذوا » معني «صيروا » أو «جعلوا » فيستقيم المعني .

* قال تعالي : « فتبسم ضاحكا من قولها ...» النمل ١٩) وقد نصب لفظ «ضاحكاً » علي الحال وتعلق به الجار والمجرور . ولقد كان من الممكن أن يكون المعني " فتبسم ساخراً» من قولها علي رغم أن «ضحك منه» قد تدل علي «سخر منه» أو سخر به» ولكن سليمان لم يكن يسخر من النملة وإنما كان يعجب من قولها . ولما لم يكن في اللغة «ضحك منه» بمعني «عجب منه» فإن هذا المعني لاينسب إلي الآية إلا علي سبيل التضمين أي تضمين «ضاحكاً» معني «عاجبا».

قطع المفعول :

ومعني ذلك ان يعمد النص إلي مفعول فيقطعه عن سياقه بتسليط غيرفعله عليه كما في قوله تعالي : «ليجزي الذين أمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم»(سبأ ٤) .

تقليب الإشارة :

وسأسوق من ذلك شاهدين أحدهما يشار فيه إلي متأخر في الكلا من قبل ذكره مع العلم أن الإشارة تكون للحاضر لا للآجل . والثاني يشتمل علي إشارة إلي معني مستخلص لم يصرح بلفظه . فالأول :

قوله تعالي : «ذلك جزاء أعداء اللّه النار» (فصلت ٢٨) .

والثاني قوله تعالي : « ومن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » (الشوري ٤٣) لأن المشار إليه هنا هو الصبر المستخلص من« صبر » والغفران المفهوم من . غفر .

٢ - الرد علي المزاعم :

وطريقة القرآن في الرد علي مزاعم الكافرين لا تخرج عن واحدة مما يأتي :

أ - الاعتذار

ب -التنزيه

جـ - الدعاء

د - التعجيز

هـ - التكذيب

و - الوعيد

ز -التعليق

ح -الإجابة ١ - بسؤال

٢ - بأمر بالسؤال

٣ - بجواب

٤ - بأمر الجواب

ط – المزج بين اثنتين أو أكثر من هذه الطرق وفيما يلي الاستشهاد علي ذلك :

أ – الاعتذار :

* ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آيه من ربه
قل إنما أنت منذر
ولكل قوم هاد (الرعد ٧) .

* والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه
قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به
إليه أدعو وإليه مآب (الرعد ٣٦).

ب التنويه :

* وقالوا اتخذ الله ولدا
سبحانه
بل له ما في السموات والأرض
كل له قانتون (البقرة ١١٦) .

* وقالوا اتخذ الله ولدا
سبحانه
بل عباد مكرمون
لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (الأنبياء ٢٦) .

جـ – الدعاء :

* وقالت اليهود يد الله مغلولة
غلت أيديهم
ولعنوا بما قالوا (المائدة ٦٤) .

* ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر
عليهم دائرة السوء
والله سميع عليم (التوبة ٩٨) .

* وإذا ما أنزلت سورة نظربعضهم إلي بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا

صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون (التوبة ١٢٧) .

د - التعجيز :

* وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصاري

تلك أمانيهم

قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (البقرة ١١١) .

* أم يقولون أفتراه

قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (هود ١٣) .

* أم اتخذوا من دونه آلهة

قل هاتوا برهانكم

هذا ذكر من معي وذكر من قبلي

بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون (الأنبياء ٢٤).

هـ - التكذيب :

* وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون

ألا إنهم هم المفسدون

ولكن لايشعرون (البقرة ١١) .

* وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء

ألا إنهم هم السفهاء

ولكن لا يعلمون (البقرة ١٣)

* يحلفون بالله ما قالوا

ولقد قالوا كلمة الكفر

وكفروا بعد إسلامهم (التوبة ٧٤)

* وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطياكم

وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لكاذبون
(العنكبوت ١٢)

و - الوعيد :

* فقد كذبوا بالحق لما جاءهم
فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .(الأنعام ٥).

* وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم علي أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء.
سيجزهم وصفهم
إنه حكيم عليم (الأنعام ١٣٩)

* يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم
قل استهزئوا
إن الله مخرج ما تحذرون.(التوبة ٦٤)

د- التعليق :

* يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء
فقد سألوا موسي أكبر من ذلك
فقالوا أرنا اللّه جهرة (النساء ١٥٣)

* **وقالوا لولا أنزل عليه ملك**
ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر
ثم لا ينظرون
ولو جعلناه رجلا وللبسنا ما يلبسون (الأنعام ٩)

* وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا
فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون
وأما الذين كفروا فزادتهم رجسا إلي رجسهم
وماتوا وهم كافرون . (التوبة ١٢٤)

* وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه
وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم

ومن قبله كتاب موسي إماما ورحمة
وهذا كتاب مصدق
لسانا عربيا
لينذر الذين ظلموا
وبشرى للمحسنين (الأحقاف ١٢)

ح- الإجابة :

١- بسؤال :

*وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل اللّه قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه أباءنا
أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون (البقرة١٧٠)

* ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون
فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه
ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون(آل عمران ٤٤)

* فأخرج لهم عجلا عجلا جسدا له خوار فقال هذا إليكم واله موسي فنسي
أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا
ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا (طه ٨٨)

*وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه
أولم تأتيهم بينة مافي الصحف الأولي (طه ١٣٣)

٢- بالأمر والسؤال :

* وقالوا لن تمسنا النار إلا إياما معدودة
قل إتخذتم عند اللّه عهدا فلن يخلف اللّه عهده
أم تقولون علي اللّه مالا تعلمون (البقرة ٨٠)

*قل من يرزقكم من السماء والارض
أمن يملك السمع والابصار
ومن يخرج الحي من الميِّت

فسيقولون اللّه !
قل أفلا تتقون
فذلكم اللّه ربكم الحق
فماذا بعد الحق إلا الضلال
فأني تصرفون (يونس ٢٢) .

٣- الجواب :

* وأقسموا باللّه جهد أيمانهم لا يبعث اللّه من يموت
بلي !
وعدا عليه حقا
ولكن أكثر الناس لا يعلمون (النحل ٢٨)
* أيحسب الانسان ألن نجمع عظامه
بلي قادرين علي أن نسوي بنانه (القيامه ٣)

٤- الأمر بالجواب :

*فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول اللّه وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه وقالوا لا تنفروا في الحر
قل نار جهنم أشد حراً
لوكانوا يعلمون (التوبة ٨١)
* وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه
*قل إن اللّه قادر علي أن ينزل آية ولكن أكثرهم لايعلمون (الأنعام ٣٧) .
* وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا
قل كونوا حجارة أو حديدا
أو خلقا مما يكبر في صدوركم (الإسراء ٤٥).

ط- المزج بين إثنتين أو أكثر من هذه الطرق :

* ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا

لولا أوتي مثل ما أوتي موسي .
أولم يكفروا بما أوتي موسي من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا وإنا بكل كافرون .
قل فأتوا بكتاب من عند اللّه هو أهدي منهما أتبعه إن كنتم صادقين
فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم
ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدي من اللّه
إن اللّه لا يهدي القوم الظالمين (القصص ٤٧)
*وقالوا إن نتبع الهدي معك نتخطف من أرضينا
أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا
ولكن أكثرهم لا يعلمون
وكم أهكلنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ومنها نحن الوارثين
وما كان ربك مهلك القري حتي يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القري إلا وأهلها ظالمون .(القصص ٥٧)
* وأقمسوا باللّه جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدي من إحدي الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا
استكباراً في الأرض ومكر السيئ
ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله
فهل ينظرون إلا سنة الأولين
ولن تجد لسنة اللّه تبديلا
ولن تجد لسنة اللّه تحويلا (فاطر ٤٢) .
* وقالوا لولا نزل هذا القرآن علي رجل من القريتين عظيم
أهم يقسمون رحمة ربك
نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا
ورفعنا بعضهم فوق بعضهم درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا
ورحمة ربك خير مما يجمعون (الزخرف ٣١).
** إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها

مصبحين ولا يستثنون ....

أفنجعل المسلمين كالمجرمين

مالكم

كيف تحكمون

أم لكم كتاب فيه تدرسون إن لكم فيه لما تخيرون

سلهم أيهم بذلك زعيم

أم لهم شركاء

فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين

فذرني ومن يكذب بهذا الحديث

سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم

إن كيدي متين

أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون

أم عندهم الغيب فيهم يكتبون

فاصبر لحكم ربك

ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادي وهو مكظوم (القلم ١٧)

* وإذا تتلي عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله

قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي

إن أتبع إلا ما يوحي إليَّ

إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم

قل لوشاء اللّه ما تلوته عليكم ولا أدراكم به

فقد لبثت فيكم عمراً من قبله

أفلا تعقلون .(يونس ١٥)

* بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون

ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها

أفهم يؤمنون

وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم
فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون
وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام
وما كانوا خالدين
ثم صدقناهم الوعد فأنجيناها ومن نشاء
وأهلكنا المسرفين
لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم
أفلا تعقلون(الأنبياء ٥)

هذه بعض من طرق القرآن في التعبير الحر وفي التحدي المعجز ظهر بها أن القرآن نص عربي ولكنه يهيمن على اللغة ولاتهيمن عليه اللغة ويتسع للنحو ولايتسع له النحو أفلا يجب بعد هذا أن نعترف بصحة قول من قال «القرآن لا تنقضي عجائبه»